الفصل الثاني
دراسة دلالات لفظ الحديث

1 ـ المعنى الحرفي للحديث:

أ ـ جديد أو حديث:

إذا تبادلنا كلمة «حديث» طبقاً لعلم دراسة دلالات الألفاظ وتطورها فهو مشتقٌّ من الأصل حادثَ، والمعنى أن حادثةً حدثت مؤخراً، ولم تحدُث من قبل[1]، وله معنيان أساسيان:

(أ) جديد أو حديث وهذا باعتباره مقابلاً لكلمة «قديم».

(ب) محادثة، أو حديث، أو قصة.

وبالنسبة للمعنى الأول استشهد ابن هشام بنصٍّ يحدث فيه القديم والحديث جنباً إلى جنب، وذكر أنَّ «رفاعة بن زيد الجذامي» سلّم خطاباً إلى النبي ﷺ { كان محمد كتبه إليه } وبه التعليق التالي: «دونك يا رسول الله قديماً كتابه، وحديثاً غدره، أناشدك يا رسول الله أن تأخذهُ إنه كُتِبَ منذ فترة طويلة ولكنَّ تدنيسه هو الحديث»[2].

واستخدم «عبدالله بن مسعود» أيضاً الحديث بنقيض «قديم»، وعرف من سلوك الرسول ﷺ تحريم التحية أثناء الصلاة، فكتب يقول: «كنا نسلِّم في الصلاة، ولكن ذات مرة قدمت على الرسول ﷺ وكان يصلّي فسلمت عليه فلم يرد عليَّ السلام، فأخذني ما قَدُمَ وما حدثَ[3] فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «إن الله يُحدثُ من أمره ما يشاء، وإن الله قد أحدَثَ أن لا تكلّموا في الصلاة»[4].

---

(1) مقاييس اللغة (2: 36)، مختار الصحاح (142).

(2) سيرة ابن هشام ط. جوتنجن، ص/ 1978.

قلت: يقابلها في طبعة مصطفى السقا (2/ 615) في خبر طويل عنوانه «غزوة زيد بن حارثة إلى جذام»، وكان رفاعة بن زيد الجذامي أسلم قبل موته، وحمل كتاباً من رسول الله (ص) إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام... (المترجم).

(3) سنن أبي داود (1: 335) في الصلاة، حديث رقم 924.

(4) المصدر السابق، نفس الموضع.

وفي نصٍّ آخر وجدنا أن النَّبيَّ يستخدم مصطلح (حديث) مع نقيضه (قديم) بالمعنى نفسه، فبعد تعليم الوصايا العشر لعمِّهِ، يقول: «... إذا أنت فعلت ذلك، غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأهُ وعمْدَهُ، صغيره وكبيره...»[1].

فكلمة حديث استخدمت هنا بمعنى جديد أو حديث.

إن الفعل «أحْدَثَ» مشتقٌّ من الأصل نفسه، ويعني «استنباط شيء جديد»؛ فعلى سبيل المثال في نصٍّ يتعلق بإضافة عبدالله بن الزبير باباً جديداً في مَبْنى الكعبة، قيل: وأحْدَثَ فيه باباً آخر[2]، ومعنى هذا المثال أنَّ فيها «باباً قديماً» وأضيف بابٌ آخر إليها.

مثال آخر: في فجر الإسلام رأى اليهود النبي ﷺ يصلي تُجاهَ بيت المقدس، وعلقوا قائلين: «على الرغم من أن محمداً ﷺ يدَّعي أنَّهُ نبيٌّ، فإننا لا نراه قدم أي شيء جديد في نبوته: { ما نراه أحْدَثَ في نبوته شيئاً }[3]، ألم يُصَلِّ تجاهَ قبلتنا، ويتبع سُنَّتنا ؟ = { ويستن بسنتنا }».

وكذلك فقد ذكر أنَّ ترتيل السور القرآنية أثناء الطواف كان شيئاً حديثاً[4].

ويتضح من الأمثلة السابقة أن الصيغة الفعلية من «حَدَثَ» لها دلالة أساسية في الإبداع والخلق، وتعني ممارسة فعل لأول مرة، لم نستخدمه من قبل.

ولهذا فالاسم المشتق «حديث» أصبح مرادفاً لـ: «بدعة» والتي تعني التجديد.

ولنأخذ مثالاً: عندما سمع الأب ابنه يرتل صيغة البسملة بصوتٍ مرتفع في بداية الصلاة صاح فيه قائلاً: يا ولدي كن حريصاً هذه بدعة (يا بني إياك والبدعة)[5].

وطبقاً للسنة التقليدية، وصيغة الصلاة يجب أن تتم همساً، ولذلك لم يوافق الأب على النطق بصوت مرتفع، وأطلق على قراءة ابنه «حَدَثَ» أو تجديد.

ومع أن لفظ «حَدَثَ» بالمعنى الحرفي تعني التجديد إلا أنها في مفهوم الشريعة الإسلامية تعني إبداع قاعدة جديدة في القانون، وتعني بالتالي إدخال سُنَّة لم تكن موجودة من قبل، وسوف نستشهد ببعض الأمثلة لنوضح هذه النقطة.

---

(1) سنن أبي داود (2: 29)، حديث رقم (1297).

(2) أخبار مكة للأزرقي (1: 137).

(3) النهاية (1: 349).

(4) أخبار مكة (2: 8).

(5) جامع الترمذي (2: 42) في الصلاة.

1- ذكر الطبري أنَّ الخليفة عثمان عندما بدأ يطرد «الخارجين عن الشريعة»، قال أولياء أمور هؤلاء الشباب المطرودين: هذا الأمر لم يحدث من قبل، ولكن طرد الرسول ﷺ كان للحكم بن أبي العاص[1] وتعليقاً على هذا النص يقول «برافمان»: يجب أن نلفت الانتباه لاستخدام الفعل «أَحْدَثَ» الذي يعني مصطلحاً محدداً في إبداع سنة[2] أو إحداثها.

2- واستشهد أبو داود بنصٍّ يوضح أنَّ ردَّ السلام أثناء الصلاة كان مسموحاً به في بداية الإسلام ثم حُرِّم بعد ذلك أما عند مناسبة نقض هذا القانون وخلق سُنَّة جديدة فقد ذكر أنَّ الرسول ﷺ قال «لا ريب» أن الله قد أحدث من أمره أن لا تكلم في الصلاة[3]، ويثني على إدخال هذا القانون الجديد لا تحدُّثَ أثناء الصلاة.

3- واستشهدت عائشة بقول النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[4] بمعنى { أن من يدخل شيئاً مستحدثاً في عقيدتنا لا يوجد بالفعل فيها فهو رد عليه}.

وعلى سبيل المثال فابن عبدالله بن مُفَضّل، قال: «سمعني أبي وأنا في الصلاة أقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال لي: «أيْ بُنّي مُحْدَثٌ، إياك والحَدَثَ، قال: ولم أر أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان أبْغَضَ إليه الحدثُ في الإسلام...»[5].

ومعنى هذا القول: أنه يلاحظ أنه لا يوجد بين أصحاب رسول الله ﷺ من كان أكثر منه بغضاً للحَدَث، يعني (القوانين الجديدة)، أو لنقل: الإحداثات الجديدة في الإسلام (ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثاً)[6].

---

(1) هو الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله ﷺ، نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان، وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله ﷺ إياه، فقيل: كان يتسمع سر رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته، وإنه هو الذي أراد رسول الله ﷺ أن يفقأ عينه بِمِدْرَى في يده لما اطلع عليه من الباب، وقيل إنه كان يحاكي رسول الله ﷺ في مشيته وبعض حركاته، فالتفت الرسول ﷺ إليه يوماً فرآه وهو يتخلج في مشيته، فقال: كن كذلك. فلم يزل (المترجم). وانظر تاريخ الطبري ط أوربة (1: 329).

(2) فجر الإسلام (162).

(3) سنن أبي داود (1: 333) في الصلاة، حديث رقم (924).

(4) سنن أبي داود (4: 28) في السنة، حديث رقم (4606)، وأيضاً انظر الأموال (185).

(5) جامع الترمذي (2: 13) في الصلاة حديث رقم (244).

(6) علوم الحديث ومصطلحه. صبحي الصالح (7).

4- وبالإشارة إلى مناقشته عن الدراسة الفكرية في الإسلام يقول «الحسن البَصْري» في خطابه إلى عبد الملك «أنحن أول من ناقشناها (أحْدَث الكلام فيه)»[1].

واضح من الأمثلة السابقة أن كلمة «حَدَث» تعني تقديم شيء جديد.

ومن هذا المعنى قريبا كلمة «حدث» وجمعها «أحداث» أصبح معناها «جريمة» أو «عدوان» والمعنى الذي تتضمنه يعني أن هذه الجريمة تم ارتكابها لأول مرة.

ولنأخذ مثالاً على ذلك فقد ذكر الأزرقي أن قبيلة العماليق ارتكبت أحداثاً في مكة، وبسبب هذه الأحداث تستحق العقاب من الله[2].

والأحداث يُقصد بها الجرائم التي ارتكبوها.

وفي نصٍّ آخر تحدث الأزرقي عن قبيلة «الجراهمة»، وقال: إن هؤلاء الناس ارتكبوا جرائم أو اعتداءات في قبيلتهم لم تكن معروفة لهم.

وبدلاً من جرائم استخدم كلمة «أحداث»، ونقول { وأحدثوا فيها أحداثاً لم تكن} بمعنى أنهم ارتكبوا جرائم لم ترتكب من قبل[3].

وكلمة «حَدَث» بمعنى عدوان، وجدت أيضاً في «نصٍّ» وُجِدَ في سجلات الطبري، لقد ذكر أنه عند استسلام بني قريظة لم تقتل أي امرأة عدا واحدة ارتكبت عدواناً (حادثاً أحدثته[4]) والحادثة أنها وضعت السم للرسول ﷺ.

وفي الواقع فإن كلمة «حدث» بمعنى «عدوان» وجدت في وثائق مكتوبة من عصر النبي ﷺ فهي موجودة ـ على سبيل المثال ـ في معاهدة السلام[5]، وفي دستور المدينة[6].

إنَّ «حدث» وأحدث بمعنى عدوان، وارتكب جريمة يمكن أن نراها بوضوح في الأمثلة التالية:

---

(1) الإسلام (بالألمانية) (21: 68).

(2) أخبار مكة (2: 106).

(3) أخبار مكة (1: 43).

(4) تاريخه (ط. أوربة) = (1: 1494 ـ 1495).

(5) السيرة لابن هشام (902)، والطبري (1: 2: 37).

(6) السيرة لابن هشام (343).

* يذكر الطبري أنّ كعب بن أسد قَدَّم ثلاثة اقتراحات ليهود بني قريظة عندما تأكدوا أنهم سيلقون حتفهم على يد المسلمين، وأحد هذه الاقتراحات هو الهجوم على محمد ﷺ وأصحابه يوم السبت (ولم يكن من المتوقع حدوث هذا الهجوم لأنه يوم راحة عند اليهود)، ولم يوافق اليهود على هذا الاقتراح، وقالوا: «هل كنا سنرتكب هذا العدوان في هذا اليوم ونعمل في يوم السبت من غير علم قبيلتنا، ولم يفعله أحد قبلنا، ونُشَوّه عقيدتنا!؟ { ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصبح من المسخ }»[1].

وطبقاً لتقرير آخر (مع تعديل طفيف) فقد كان رَدّ اليهود في هذه الكلمات: «بعضنا ارتكب عدواناً وأَخَذَ عقوبة لم تكن مجهولة لك» { وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخفى عليكم }[2].

إنّ الفعل «أحدث» في صيغة الجمع بمعنى ارتكاب عدوان، وجد في عقد أصدره الرسول ﷺ لقبيلة عبد القيس والتي كانت تقطن البحرين[3]، وكلمة محدث (هي التصريف الثالث لكلمة أحدث) موجودة في دستور المدينة[4]، وفسرها (البروفيسور سرجنت) بطريقة صحيحة على أنها إجرام[5].

* وفي تقرير وُجد في سيرة ابن هشام يقال: إن رجلاً وامرأة من قبيلة جرهم ارتكبا عدواناً (أَحْدَثا)[6] في مقام الكعبة، ونتيجة لهذا سخطهما الله إلى أحجار[7].

* ومرة ثانية يذكر مالك هذه الكلمة عادة حيث إن هذه الكلمة وجدت بمعنى ارتكاب الزنا ـ باعتبارها جريمة عدوانية[8].

---

(1) تاريخ الطبري (1: 1488).

(2) تاريخ الطبري (1: 1482).

(3) الطبري (1: 2: 32، 33، 54)، الوثائق السياسية (72).

(4) السيرة (342).

(5) Serjeant (the constitution of medina).

(6) The Offence committed by them was copulation.

(7) السيرة (54).

(8) الموطأ (3: 164).

وكلمة أحداث وحدث معبر عنها في شعر حسَّان وفي أحد قصائده يندب موت عثمان ويقول:

يا زيدُ يا سيِّد النجار إنا لما ... أحْدَث قومك في عثمان لي خَبَراً[1]

وفي هذا المثال يناشد الشاعر زيدَ بن ثابت قائد قبيلة النجار قائلاً: ولا ريب إنني أخشى العدوان، أي أنه يخشى أن يرتكب رجاله جريمة ضد عثمان.

* والشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم» يعتبر كلمة حادث «عدوانا» من جانب محبوبته لتقطع علاقتها به، ويقول:

كيف نسألك حال أحدثت صرماً ... بي وشك البين أم خنت الأمانا[2]

ويطلب الشاعر من محبوبته أن تقف حتى يسألها ما إذا كانت قطعت علاقتها به (وذلك في حد ذاته عدوان ارتكبته في حقه) لتحثّه على الانفصال، أم هي تخدع من وَثَق فيها ولم يعرف الخداع؟!

وفي الواقع أن كلمة «حَدَثَ» في معناها الحرفي تستخدم لتشير إلى ارتكاب أي فعل غير مرغوب فيه، سواء وقع هذا الفعل تحت طائلة القانون أم لا، وعليه فكلمة «حدث» التي وحدت في سنة أهل المدينة[3] قد فسرها «العسقلاني» على أنها أفعال مخالفة للشرع وأنها أفعال مكروهة[4].

ولكن المعنى الأساسي لكلمة «حَدَثَ» هو أن تؤدي عملاً لأول مرة أو أن تجدد في هذا العمل، ولهذا نجد في القرآن قصة يسأل فيها الخضر موسى: إذا أردت أن تتبعني لا تسأل عن أي شيء حتى أحدثك أنا فيه أولاً «حتى أُحْدِثَ لك منه ذكراً»[5].

---

(1) ديوان حسان (28).

(2) الشعراء السبع (132).

(3) النص الذي فيه الكلمة في صحيح البخاري (4: 428) في كتاب الاعتصام بالسنة، يقرأ كما يلي: «... المدينة حرم... فمن أَحْدَثَ فيها حدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين...».

(4) إرشاد الساري (10: 320).

(5) القرآن الكريم (الكهف: 70).

وفي موضع آخر استخدم القرآن كلمة «أَحْدَث» بمعنى الاطلاع على بعض الأفكار الجديدة ففي تحريم النطق بالطلاق المتسرع يقول القرآن في سورة الطلاق: «لعل الله يُحْدِث بعد ذلك أمراً»[1].

ومرة ثانية، في شرح بعض أغراض وحي القرآن يقول الله «لقد أرسلنا هذا القرآن بلسانٍ عربي» وأدخل الله تهديدات ووعوداً مختلفة في تلك المسألة، حتى يخشى العبادُ الله، وحتى يحيي بعض المحامد فيهم (أَوْ يُحْدِثَ لهم ذكراً)[2] وكلمة «يُحْدث» في الآيات السابقة استخدمت مرتبطة بأمر وذكر، بينما عندما تناولنا «يحدث» فيما سبق وجدناها تشير إلى إحْداث تغيير، وموقف جديد، والذي يمكن أن يحدث مصالحة بين الزوج والزوجة، وذلك في السورة الأخيرة، وبتذكير الكافرين بهذه الذكرى كما لو كانوا يعرفونها لأول مرة.

ويتضح من المناقشات السابقة أنَّ المعنى الأساسي لأصل «حَدَثَ» هو جديد أو مستحدث، والكلمة بهذا المعنى استخدمت كثيراً في الشعر الجاهلي.

ويقول الشاعر الجاهلي الخَصَفي[3]:

ونُرْسي إلى جُرْثُومَةٍ أَدْرَكَتْ لنا حديثاً وعاديّاً من المجد خِضْرِمَا[4]

ومعنى هذا البيت: أنَّنا نُسْرع الخُطى إلى أَصْلِ الجذر التي وصلت مرحلة النضج بيننا فالمجد القديم والحديث متوفرٌ وجليٌ وكثير[5].

---

(1) القرآن الكريم (الطلاق: 1).

(2) القرآن الكريم (طه: 113).

(3) هو الخَصَفِي الشاعر الجاهلي من مُحارب، واسمه عامِرٌ المَحَارِبيُّ، وهو من بني محارب بن خَصَفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. (المترجم).

(4) (الجرثومة) = أصل الشجرة، وضرب هذا مثلاً للحسب.

(العادي) = القديم كأنه من عهد عاد.

(الخِضْرم) = الكثير أو الواسع. (المترجم).

(5) المفضليات (1: 628).

ومرة ثانية، فمتمم بن نويرة[1] في مرثيه أخيه يترنم بتساؤل بنت العَمْري (ربما تكون زوجة المتمم):

تقولُ ابنةُ العَمْريِّ مالَكَ بعْدما أراك حديثاً ناعم البالِ أفْرَعَا[2]

ولنأخذ بعض الأمثلة الأخرى فالتعبيران: «حديث العهد بالإسلام»[3] «حديث عهد بعرس»[4] يعنيان بوضوح: المهتدين حديثاً إلى الإسلام، والأشخاص المتزوجين حديثاً.

فالحديث بمعنى الجديد أو الحديث استخدم أيضاً مرتبطاً بعمر المرء وعلى هذا فحديث السن تعني الصغير في السن[5]، وعبارة «أحدث القوم» فُسِّرَتْ على أساس الأصغر من مجموعة من الناس[6].

إنَّ مصطلح «الأحدث» بمعنى الأصغر في العمر«وجد» في طبقات ابن سعد[7] حيث ذكر أنه من بين أصغر أصحاب النبي ﷺ (من أحْدَثِ أصحاب رسول الله ﷺ) فأبو سعيد الخدري كان أفضل فقيه، وفي موضع آخر ذكر أن ابن عمر كان يعدّ من أصغر المشرعين (من الفقهاء الأحداث)[8] ومرة ثانية ففي حين كان رواة الحديث من الصحابة

---

(1) هو متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع... وهو صحابي، وله في أخيه مالك قصائد يرثيه به من غرر الشعر. (المترجم).

(2) ساق المؤلف هذا البيت بمعناه باللغة الإنجليزية، وأثبتُّه بنصه من المفضّليات ط دار المعارف. (268) البيت رقم (29)، وابنة العَمْري = قال البغدادي: هي زوجته، وقال الأنباري: أي تقول له: مالك شاحباً متغيراً بعد أن كنت منذ قريب ناعم البال أفرع. (المترجم).

(3) المصباح المنير مادة «حَدَثَ».

(4) صحيح البخاري (2: 87) في الاستقراض وأداء الديون.

(5) المصباح المنير، مادة حَدَثَ، الجمهرة (2: 34)، مختار الصحاح (142) الوسيط (160)، سنن أبي داود (3: 137) في الأضاحي، حديث رقم (2829).

(6) المصباح المنير ـ مادة «حَدَثَ».

(7) طبقات ابن سعد (2: 2: 125).

(8) طبقات ابن سعد (2: 2: 125).

كبار السن وصغار السن على السواء أطلق محمد بن عمر الأسلمي على صغار السن: الأحدث[1].

والكلام بهذا المعنى يُسْتخدم مرتبطاً بعمر الحيوانات؛ وعليه فقد استخدمه أبو جهل مرتبطاً بالجمل، فقال:

مـا تَـنْقِمُ الحـربُ العـوانُ منـي بـازِلُ عـامينِ حَـدِيثٌ سِـنّي

لِمِثْلِ هذا وَلَدَتْني أمي[2]

وهذا معناه مهما كانت ضراوة الحرب لا أكرهها، فأنا كبازل نابه اكتملت قوته صغير أسنانه حادة، في نفس موعد اكتمال قوى البازل، أي وعمره عامين، ولهذا السبب ولدتني أمي.

وفي حين يستخدم أبو جهل المصطلح بمعنى عمر الحيوان، يستخدمه أبو جلدة اليشكري بمعنى عمر الإنسان، ففي إحدى قصائده، يقول:

أخـواتٌ قرشـوا الـذنوب علينـا في حـادثٍ مـن عمرنـا وقـديم[3]

أي أنَّ أخواته جلبوا العار لعائلته عندما كانوا صغاراً.

ووجدنا هذه الكلمة في حوار بين عمير بن وهب، ومحمد ﷺ عندما اعتنق عمير الإسلام. وذكر أنه عندما حيا عمير، محمداً ﷺ طبقاً لعادة الوثنيين، قائلاً أَنْعِموا صباحاً أخبر النبي ﷺ عميراً أنَّ الله شَرّفهم بتحية أفضل، وهي السلام وهي تحية أهل الجنة، وعليه ردَّ عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهدٍ...[4].

وجدنا في الأمثلة السابقة أن كلمة «حديث» معناها جديد، أو حديث وغالباً ما تستخدم نقيضاً لكلمة قديم. ولهذا، يبدو أن التعريف الفني للحديث كأقوال وأحداث وترحيب النبي أو عدم ترحيبه بها انبثق من هذا المعنى الأصلي. ولأن القرآن الكريم

---

(1) طبقات ابن سعد (2: 2: 127).

(2) السيرة (450)، وذكر أبو جهل هذه الأبيات يوم مقتله.

(3) السيرة (61).

(4) السيرة (473).

(الأزلي) كان ينزل مُنَجَّماً وعليه فالحديث كونه كلمات محمد ﷺ وتعليماته فهو يعدّ جديداً، ولهذا قد سمي «حديثاً».

وفضلاً عن هذا: فاسم حديث ينقل معنى الجديد أو فكرة تُقَدَّم في شكلٍ جديد. ولأن أقوال الرسول ﷺ كانت مليئة بالمعلومات الجديدة التي أعطت معانيَ جديدة لكثير من المفاهيم التي كانت سائدة قبل الإسلام ولهذا فهذه الأقوال اصطلح على تسميتها «حديث».

ب ـ الحديث أو فن السرد:

إن الحديث له معنى آخر أساسي، ألا وهو محاضرة أو فن السرد، والمعنى الثاني يحمل معنى: قصة، بيان، تقرير، اتصال، حديث، أو محاضرة.

وفي القرآن الكريم وجدنا تعبيرات مثل: «حديث موسى»[1]، «قصة موسى»، «حديث ضيف إبراهيم المكرمين»[2] (قصة تشريف ضيف إبراهيم)، وحديث الجنود[3] (قصة الضيوف)، حيث استخدم مصطلح حديث بمعنى قصة، وفي مناسبات أخرى، فالكلمة استخدمت لتشير لنصٍّ، أو بيان[4].

فالكلمة بمعنى حديث، أو محادثة استخدمت بهذا المعنى في عصر مبكر جداً.

ولنأخذ مثلاً آخر «النابغة الذبياني» الشاعر الجاهلي حين مدح زوجة النعمان استخدم تعبير «حُسْن حديثها»[5] إشارة إلى حلاوة حديثها.

ولنأخذ مثلاً آخر أيضاً، عندما وصفت خديجة سبب اختيارها محمداً زوجاً لها ذُكِرَ أن خديجة، قالت: «إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسِرّ لمطَنِك في قومك وأمانتك، وحسن خلقكَ، وَصِدْقِ حديثك»[6].

---

(1) القرآن الكريم (طه: 9) و(النازعات: 15).

(2) القرآن الكريم (الذاريات: 24).

(3) القرآن الكريم (البروج: 17).

(4) القرآن الكريم (الكهف: 6) و(النجم: 59) و(الواقعة: 81) و(القلم: 44).

(5) ديوان الحماسة (33).

(6) السيرة (120).

وفي السنوات الأخيرة أخبرت ورقة بن نوفل عن تجربة محمد في تلقي الوحي، فنقل ورقة بعض أبيات وُجِدَ فيها كلمة «حديث» بمعنى كلمات تخرج من الفم، والأبيات التي ذكرها هي:

لَجَجْتَ وكُنْتَ في الذِّكْرى لجوجاً ... لهمٍّ طالَما بَعَثَ النَّشِيجا

ووصْفٍ من خَدِيجة بعد وَصْفٍ ... فَقَدْ طالَ انتظاري يا خديجا

بِبَطْنِ المَكَّتَيْنِ على رَجَائي ... حَدِيثَكِ أنْ أرى مِنْه خُرُوجا[1]

ومعنى هذه الأبيات أن ورقة بن نوفل احتفظ بالسر ثم أصر على أن يذكر هذا القلق الذي يثير الدموع واحتفظ بالسر حتى يأتي من خديجة ويصبح دليلاً مؤكداً على نبوة محمد ﷺ[2].

ولنأخذ مثالاً آخر: فالأزرقي في كتابه أخبار مكة كتب يقول «من يؤد الطواف حَوْلَ الكعبةِ يجب أن يكرر أحاديث شفهية من القرآن حتى يضمن حفظه»[3].

وفي تقرير وجد في كتاب الأغاني يثني عبد العزيز بن مروان على الشاعر نصيب بن رابح ويقول: «لك جزاء على صدق حديثك»، ومعنى ذلك أنه يستحق مكافأة لإخلاصه في حديثه. والشاعر نفسه وصف ذلك بهذه الكلمات «أعطاني ألف دينار بسبب صدق حديثي، وألف دينار أخرى لنظمي الشعر»[4].

ويستخدم كعب بن مالك أيضاً كلمة (حديث) بمعنى حديث وبيان فهو يعترف للنبي ﷺ أنه غاب عن معركة تبوك، وقال من قصيدة طويلة أعرف أنني لو أخطأت البيان اليوم (حديثاً كاذباً) ستقبله ولكن لو ألقيت نصاً صادقاً (حديثاً صادقاً) فربما يثير غضبك، ولكني آمل أن يجزيني الله في النهاية[5].

---

(1) السيرة (121).

(2) السيرة (GUILL) (83).

(3) أخبار مكة (2: 7).

(4) الأغاني (1: 342).

(5) السيرة (910).

ونلاحظ في كافة الأمثلة التي استشهدنا بها أن كلمة حديث استخدمت بمعنى الكلام أو الحديث، وبناء على هذا المعنى الموروث باعتبار الحديث كلاماً أو كلمة من الفم استخدمت في القرآن[1] بهذا المعنى أيضاً ويقول «إن خير الحديث كتاب الله»[2].

ومما لا ريب فيه أن خير دليل هو كتاب الله (أصدق الحديث كتاب الله)[3] والصحابي ابن مسعود يبدأ خطابه بعبارة «إن أصدق الحديث كتاب الله»[4]. وطبقاً لمصادر أخرى فكلمة «أصدق» في الحديث السابق حل محلها أحسن[5]، ولكن كلمة «الحديث» وجدت في كافة المترادفات.

ومن الطريف أن كلمة «حديث» في القرآن استخدمها أعداء النبي ﷺ، فقد ذكر أن النضر بن الحارث بعد سماعه بعض الآيات القرآنية علق قائلاً: (ما حديث محمد إلا أساطير الأولين)[6].

ومن الضروري أن نلاحظ أنه في السنوات التي تلت هذه الفترة حلت كلمة «كلام» ـ والتي تحمل معنى حديث أيضاً ـ محل كلمة «حديث» في التعبيرين «أصدق الحديث» «وأحسن الحديث»، ويستشهد ابن ماجة بحديث يقول «أحسن الكلام كلام الله»[7].

واستبدال كلمة «حديث» بكلمة «كلام» شهادة دافعة لحقيقة أن المعنى السابق (حديث) هو في حد ذاته كلام، حيث كان التعبير الغالب على ما ينطقه الفم من كلام.

وقد وجدنا أن كلمة «حديث» في معناها الحرفي تعني كلاماً أو محادثة، وما دام هذا هو معناها الرئيس، فالأحاديث العادية والأحداث التاريخية الهامة يمكن أن تعرف على أنها حديث[8]، وابن هشام يستخدم دائماً هذه الكلمة ليشير إلى الأحداث التاريخية[9].

---

(1) القرآن الكريم (الكهف: 6)، (الزمر: 23)، (الطور: 34)، (النجم: 59)، (الواقعة: 81)، (التحريم: 44).

(2) صحيح مسلم، كتاب الجمعة (1: 336).

(3) سنن النسائي (صلاة العيدين) = (3: 188).

(4) البيان والتبيين للجاحظ (2: 56).

(5) صحيح البخاري (4: 420) في كتاب الاعتصام بالسنة، وسيرة ابن هشام (340) وإرشاد الساري (9: 63).

(6) السيرة (383 ـ 384).

(7) سنن ابن ماجة في المقدمة (1: 22).

(8) السيرة (154، 181).

(9) السيرة (144، 554، 555، 731، 736) وغيرها.

فعلى سبيل المثال: قد ناقش حدث معركة أحد تحت عنوان «حديث أحد»[1] (قصة أحد) وفعلاً تحدث عن مصدر معلوماته عن هذا الحدث، وقال: محمد بن مسلم الزهري، محمد بن يحيى بن حبان، عاصم بن عمر بن قتادة، حصين بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ، وأئمة آخرون حدثونا بأخبار منفصلة (بعض الحديث)، حول معركة أحد، وجميعها تكون معاً (اجتماع حديثهم)[2] تاريخ أحد.

ونجد أن كلمة حديث في الأخبار السابقة استخدمت بمعنى حدث هام.

وسنأخذ مثالاً آخر فقد أشار ابن هشام إلى «عمرو بن حممة الدوسي» بقوله: «سأذكر حديثه في موضعه إن شاء الله»[3].

وفي موضع آخر نقل عن ابن إسحاق قوله: «إن قريشاً كان لها صنم في وسط الكعبة يسمى «هبل»، وعلق ابن هشام قائلاً: «سأذكر حديثه إن شاء الله في موضعه»[4].

ولنأخذ مثالاً آخر:

ذات مرة سَأَلَ أبو هريرة الأنصار: «هل لي أن أستمتع بحديث من أحاديثكم يا أنصار» ثم أخبرهم بقصة متعلقة بفتح مكة[5].

فكلمات حديث، وأحاديث التي استخدمت في هذا النص تعني بوضوح حكاية، أو نادرة، وقصصاً بصفة خاصة.

إذاً فحديث، وجَمْعُهُ أحاديث يشير إلى أسطورة أو خرافة أو قصة أياً كانت طبيعتها. دينية أو دنيوية، ويشير الفراء (م: 207هـ) إلى هذا المعنى بقوله: «إن مفرد أحاديث أحدوثة = (حَدَث) ولهذا جعلوا جمعه حديث»[6].

ولنأخذ مثالاً آخر: فالأزرقي يذكر أن جماعةً من القرشيين من بينهم الجعد بن هبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، والحارث بن عبدالله، وعبدالله بن زمعة بن

---

(1) السيرة (555).

(2) السيرة (555).

(3) السيرة (54).

(4) السيرة. الموضع السابق.

(5) فتوح البلدان (52)، دراسات إسلامية لجولد تسيهر (2: 3/ 17).

(6) قواعد التحديث للقاسمي (35).

الأسود قد تجمعوا ومعهم معاوية بن أبي سفيان؛ ليتدارسوا قصصاً متعلقة بالعرب = { فتذاكروا أحاديث العرب }[1].

ولنأخذ مزيداً من الأمثلة:

ذات مرة جاء عمر إلى النبي ﷺ، وقال: «إننا نسمع أحاديث (قصصاً) من اليهود تعجبنا؛ أفترى أن نكتب بعضها؟ ويرد عليه النبي ﷺ بالنفي[2].

وفي كل هذه الأمثلة فكلمة «حديث» استعملت المعنى الحرفي لكلمة قصة، نادرة، أو حَدَث.

أما المشتق الآخر من «حدث» فهو الصيغة الفعلية لـ: «تحدث» والتي تعني وصف، سرد، أو وصف (القصص ـ الحقائق ـ الأحداث)..الخ.

والكلمة بهذا المعنى استخدمت مراراً وتكراراً في القرآن[3]، وفي كثير من النصوص الأدبية، وفي تمجيد الأعمال البطولية الإسلامية يقول عمرو بن كلثوم:

فهل حُدِّثْتَ في جشم بن بكرٍ بنجدٍ في خطوب الأوَّلينا[4]

أي يا عمر ألم تسمع شيئاً عن قبيلة جشم بن بكر في نقضهم بعهدهم في كل حدث جسيم سابق.

ومرة ثانية يتحدث «اليشكري»[5] الشاعر المخضرم عن جمال سيدته بهذه الكلمات:

---

(1) أخبار مكة (1: 110).

(2) الفائق (3: 218).

(3) القرآن الكريم (البقرة: 76)، (الضحى: 11)، (الزلزلة: 4).

(4) المعلقات السبع (151).

(5) ترجمته: هو سويد بن أبي كاهل بن حارثة بن حسل بن مالك بن عبد سعد بن جشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. شاعر مقدم مخضرم، عاش في الجاهلية دهراً، وعمر في الإسلام عمراً طويلاً، عاش إلى ما بعد سنة 60 من الهجرة. قرنه الجمحي في طبقاته بعنترة. وقرنه أبو عبيدة بطرفة والحرث بن حلزة وعمرو بن كلثوم، كما نقل ابن قتيبة في الشعراء 92، 141. وكان أبوه أبو كاهل شاعراً أيضاً. وفي اللسان 13: 424 قصة في هجائه بني غبر. (المترجم).

تُسْمِعُ الحُدّاث قولاً حَسَناً لو أرادوا غيره لم يُسْتَمَعْ[1]

أي أنَّ كلماتها حلوة وجميلة لمن تحدثها، ولكن لو أرادوا أن يسمعوا غيرها امتنعت عن الكلام.

ويعطي الأزرقي وصفاً لبيت أم أنمار، ويقول: «كان رجال قريش يجلسون بفناء بيتها يتحدثون»[2]، أما بالنسبة للمكان التاريخي: «الأقحوانة» فيقول عنه الأزرقي: (الأقحوانة عند علية القوم، كان مجلساً يجلس فيه من خَرَجَ من مكة يتحادثون فيه بالعشية[3].

فالأقحوانة كان منتدى تعوَّد أهل مكة أن يتحدثوا فيه في أوقات فراغهم مساءً.

ومن هذه الصيغة الفعلية جاءت كلمة «مُحَدّث» وتعني الراوي لرواية[4]، وهو ليس بالضرورة سنة عن النبي ﷺ، مع أن كلمات «حَدَّث» و«محدث» عندما استخدمت في السياق الإسلامي كان المقصود بها الشخص الذي يروي سنة الرسول ﷺ وراوي السنة النبوية بصفة خاصة.

2 ـ المعنى الاصطلاحي للحديث:

بعد أن تناولنا المعنى الحرفي لكلمة «حديث» نَنْتَقِلُ إلى المعنى الاصطلاحي له، فعلى المستوى العلمي: القول، الفعل، التقرير، الصفة[5] كل هذا يندرج تحت اسم حديث، وكانت هذه أول المعاني العملية للحديث، والذي يمكن استنتاجه من القرآن الكريم.

ثم اتَّسَعَ منظور الحديث، ولم يعد يشتمل على الأقوال والأفعال، وما هو جائز، وما هو محرم من قِبَل أصحاب النبي ﷺ وبخاصة خاصة الصحابة الكبار فحسب، بل تَضَمَّنَ أيضاً فتاوى التابعين[6].

---

(1) الحداث: الذين يحدثونها وتحدثهم، وفي النهاية: «هو جمع على غير قياس، حملاً على نظيره، نحو سامر وسمار». لم يستمع: المعنى: لو التمسوا منها سوى الحديث لم ينالوه، يصف عفتها. (المترجم).
المفضليات (1: 387) طبعة أوربة، وصفحة (193) طبعة شاكر.

(2) أخبار مكة (1: 206).

(3) أخبار مكة (2: 225).

(4) السيرة (17).

(5) دستور العلوم (2: 15) السنة قبل التدوين (16)، كشف الظنون (1: 635).

(6) تهذيب التهذيب (7: 33)، الموافقات (3: 69 ـ 70).

واستخدم القرآن الكريم كلمة حديث بمعانٍ كثيرة، والدراسة الفاحصة للآيات التي وجد فيها كلمة حديث، تبين أن التعريف العملي للحديث مبنى على التناول القرآني لهذا المصطلح، ولهذا دَعْنا نتأمل عن أي معنى عبَّر القرآن بكلمة حديث.

وبدءة ذي بدء نحن نرى أنَّ القرآن استخدمه بمعناه الحرفي أي بمعنى: محادثة، حديث، مستحدث، قصة. الخ ولهذا «فحديث غيره»[1] «لهو الحديث»[2] «مستئنسين لحديث»[3] «بأي حديث»[4] «أسرَّ حديثاً»[5] «أصدق حديثاً»[6]، كل هذه الآيات تشير إلى أن الحديث كلمات تخرج من الفم «حديث»، «كلام»، «محادثة»، والقرآن الكريم نفسه ذكر كحديث[7] لأنه كلام الله.

وفي أحَدِ مواضع من القرآن الكريم وُجِدَ تعبير الحديث مرتبطاً بكلمة «الغاشية»، أي الحدث الشامل[8] بينما في مواضع أُخَر استخدمت هذه الكلمات لتشير إلى قصة[9]، وجمعها أحاديث أي (قصص)[10].

ووجدنا أن الصيغة الفعلية «تحديث» مشتقة من الأصل حَـدَثَ ـ حادث والتي تعني يصف، يقص، يروي (قصص ـ حقائق ـ أحداث) والكلمة وجدت في القرآن الكريم بهذا المعنى الخاص جداً[11]، فالتعريف العملي للحديث كأقوال، وأفعال، وتقرير، وصفه النبي ﷺ يبدو أنه مستنتج من التعبيرات القرآنية السابقة[12].

---

(1) القرآن الكريم (النساء: 14).
(2) القرآن الكريم (لقمان: 6).
(3) القرآن الكريم (الأحزاب: 53).
(4) القرآن الكريم (المرسلات: 50).
(5) القرآن الكريم (التحريم: 3).
(6) القرآن الكريم (النساء: 87).
(7) القرآن الكريم (الكهف: 6)، (الزمر: 23)، (الطور: 34)، (النجم: 59)، (الواقعة: 81)، (القلم: 44).
(8) القرآن الكريم (الغاشية: 1).
(9) القرآن الكريم (يوسف: 111)، (طه: 9)، (الذاريات: 24)، (النازعات: 15)، (البروج: 17).
(10) القرآن الكريم (المؤمنون: 44)، (سبأ: 19).
(11) القرآن الكريم (البقرة: 76)، (الضحى: 11)، (الزلزلة: 4).
(12) القرآن الكريم (المائدة: 3) والآية الأخرى هكذا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

والقرآن الكريم يعتبر الدين نعمة، ويعظ كافة البشر بهذه الكلمات: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] ولأن النبي كان ينشر نعمة الله «أي الدين» من خلال أفعاله، وأقواله، فكافة هذه التصرفات الخاصة بهذه المواعظ كانت بحق تسمى «حديثاً».

وربما اشتق هذا المصطلح من تعبيرات أخر في القرآن الكريم، حيث استخدمت كلمة حديث لتصف أفعال وأعمال الأنبياء عموماً، وعليه، فسلوك تشريف إبراهيم لضيفه[2]، وسلوك موسى عُبِّر عنهما بكلمة «حديث»[3].

وبناءاً على هذه الآيات حيث عبرت الكلمة عن أقوال النبي ﷺ وسلوكه بصفة عامة، وبالنسبة لمحمد ﷺ، فالحديث كان مقتصراً على الأحاديث الخاصة بالنبي محمد ﷺ، ولهذا فمصطلح «حديث» الذي استخدم لأقوال محمد ﷺ قد اقترحه النبي ﷺ نفسه، وذكر أن أبا هريرة سأل النبي ﷺ ذات مرة «من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة»؟ ويرد النبي ﷺ «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث»[4].

وفي مناسبة أخرى، عندما استخدم الحديث بالمعنى السابق في وجود الرسول ﷺ وافَقَ عليه ضمناً.

وجاءت امرأة إلى الرسول ﷺ وقالت: «يا رسول الله إذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، وتعلمنا مما علمك الله، ورد الرسول عليها: اجتمعن في يوم كذا وفي المكان كذا»[5].

وذكر أنه في أحد المعارك أخبر النبي ﷺ أن رجلاً بعينه، مع أنه يحارب بجانب المسلمين، لكنه من أهل النار، وتعجب الصحابة بشدة من أن يستمعوا إلى هذا الحديث عن هذا الرجل الذي يحارب من أجل الإسلام ولكن في نهاية المعركة وجدوه منتحراً، فاعتقدوا أن كلمات النبي ﷺ طرقت أذن هذا الرجل فقالوا: يا رسول الله «صدق الله حديثك» انتحر فلانٌ فقتل نفسه[6].

---

(1) القرآن الكريم (الضحى: 11).

(2) القرآن الكريم (الذاريات: 24).

(3) القرآن الكريم (طه: 9)، (النازعات: 15).

(4) صحيح البخاري (4: 245) في الرقاق، وطبقات ابن سعد (4: 2: 56).

(5) صحيح البخاري (4: 430) في الاعتصام بالسنة.

(6) إرشاد الساري (9: 352).

فالصحابة أيضاً استخدموا كلمة حديث، وقصدوا بـه حـديث النبـي ﷺ ولنأخـذ مثالاً عن أبي هريرة الذي يقول عن نفسه «لا يوجد في أصحاب الرسول ﷺ عـدا عبـدالله ابن عمر أكثر مني حفظاً للحديث»[1].

وكلمة حديث لا تعني أكثر من أقوال النبي ﷺ وسوف تتضح الصورة أكثر، عندما نقرأ الجزء المتبقي من حديث أبي هريرة حيث يقول: «إن عبدالله بن عمر، اعتـادَ أن يُـدَوِّنَ الأحاديث، ولكن لم أفعل ذلك»[2].

وصحابيٌّ آخر هو عبدالله بن جعفر استخدمَ أيضاً المعنـى نفـسه فقـال «في يـوم مـا طلب مني الرسول ﷺ أن أَرْكَبَ خلْفَهُ، وبينما نحن في الطريق أسرَّ إليَّ بحديث»[3].

ومن الواضح أن كلمة حديث استخدمت هنا لتشير إلى أقوال النبي ﷺ.

وفي أحاديث أخرى لأبي هرَيرة يقول أنه لديه. خمسة صناديق مليئة بالأحاديث[4].

وكلمة أحاديث توضح أفعال النبي ﷺ.

واستخدم أنس بن مالك أيضاً كلمة أحاديث بمعنى أفعال النبي ﷺ وذلك عنـدما قال: «سأنقل إليكم عدداً كبيراً من أحاديث النبي ﷺ ويقول النبي: «من كذب عليَّ متعمداً فليتَبَـوَّأ مقعده من النار»[5].

وكذلك فقد قال ابن عباس «تعودنا أن نحفظ الحديث عن ظَهْر قلب»[6]

ويقصد بالحديث أفعال النبي ﷺ وأقواله.

ولنأخذ مثالاً آخر، فقد دَوَّن الأوزاعي قاعدة وهي عندما نعثر على حـديث النبـي ﷺ فلا نعبأ بشيء آخر سواه (مثل الاجتهاد والقيـاس)، لأنَّ رسـول الله ﷺ هـو خـير مـن يحمل أوامر الله[7] وهنا يشير الأوزاعي بصفة خاصة إلى حديث النبي ﷺ.

---

(1) إرشاد الساري (1: 206)، المحدث الفاصل (34ب ـ 35أ).

(2) إرشاد الساري (1: 206)، المحدث الفاصل للرامَهْرمُزي (34ب ـ 35أ).

(3) سنن أبي داود (3: 33) في الجهاد، حديث رقم (2549).

(4) المحدث الفاصل للرامهرمزي (66أ).

(5) صحيح البخاري (1: 39 ـ 40) في كتاب العلم.

(6) سنن ابن ماجة (1: 15) في المقدمة.

(7) تذكرة الحفاظ (1: 170)، ففي هذا النص: لا يُسمح لأحد باستعمال رأيه ضد سنة النبـي ﷺ، (سـنن الـدارمي (1: 114)، ويمكن القول بأن الأوزاعي، وليس الشافعي هو واضع نظرية «الحديث بعد القرآن».

واستخدم أبو يوسف أيضاً هذه الكلمة بمعنى حديث النبي ﷺ[1].

ونجد أمثلةً كبيرةً لهذا الاستخدام في الرد على سِيَرَ الأوزاعي[2].

ففي أحد المرات بعد ذكر تطبيق عمر في قبول سنة النبي مبدأ شهادة شاهدين يقول «كن حريصاً عند سماع الحديث الشاذ»[3].

وفي هذه العبارة يستخدم كلمة الحديث بمعنى حديث النبي ﷺ وذكر أنه قال: «فعليك من الحديث فيما تعرفه الأمة»[4].

وهنا يبدو أن أبا يوسف استخدمَ أيضاً كلمة حديث بمعنى سنة النبي ﷺ.

بالإضافة إلى كل هذه الأمثلة، فإن مصطلح «حديث» «وأحاديث» في الأمثلة التالية، يحمل معنى أفعال وأقوال الرسول ﷺ:

(أ) قال عتبة: إن ابن عباس روى حديثين أو ثلاثاً في شهر فحسب[5].

(ب) ذكر أن عمر منع الصحابة من رواية الأحاديث الكثيرة (إكثار الحديث)[6].

(جـ) يقول النبي ﷺ «إن الحديث سيفشو عني»[7].

(د) وذكر عن عليٍّ أنه نقل عن النبي ﷺ «إذا كتبت الحديث، اكتبه بالإسناد»[8].

ويتضح من الأمثلة السابقة أن مصطلح حديث في المراحل الأولى من الإسلام، أشار إلى سنن النبي ﷺ فحسب ولكن مع مرور الوقت اتسع مجاله، ولم يتضمن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله فحسب، بل ضمَّ أيضاً أقوال الصحابة والتابعين.

---

(1) يمكن الرجوع إلى كتبه: الرد على سير الأوزاعي (41، 52)، الخراج (19، 65، 70)، الحجج (164).

(2) الرد على سير الأوزاعي (14، 29، 30، 63، 135) وغيرها.

(3) الرد على سير الأوزاعي (31).

(4) الرد على سير الأوزاعي (24).

(5) سنن الدارمي (1: 46).

(6) جامع بيان العلم (2: 120).

(7) الرد على سير الأوزاعي (25).

(8) أدب الإملاء والاستملاء (5).

لذلك فقد عرف الحديث على أنه أقوال وأفعال النبي ﷺ والصحابة، والتابعين، وتبع التابعين[1] ويضمِّن السخاوي تعريفه للحديث أيضاً فتاوى الصحابة والتابعين[2].

إن الترجمة الإنجليزية لمصطلح حديث هي (انتقال العادات)[3] ويبدو أن اختيار كلمة عادة كترجمة لحديث اتخذت بعد أن وُضِعَ في الاعتبار دلالة الحديث ومعناه، فكلمة انتقال العادات في دلالتها اللفظية بالإنجليزية تعني «تسليم» وهذا المفهوم يتضمن:

(أ) وديعة تسلم.

(ب) ومستلم بمعنى الأشخاص المنوط بهم الحفاظ على الوديعة ونقلها إلى التابعين[4].

وعندما نطبق هذا التعريف «للعادات المنقولة» على الحديث نجد أنه ينطبق عليه تمام الانطباق، فالحديث يتعلمه آخرون، ويحافظون عليه، وينقلونه إلى التابعين، وفضلاً عن هذا، فالرواية من جانب، ونقل الحديث من جانب آخر جزء لا يتجزأ من علم العادات والتقاليد لأن الحديث يتكوَّن من المتن والإسناد.

فالأحاديث تم تقسيمها على أساس محتواها (المتن) إلى تشريعية، شعائرية، سياسية، نبوية... الخ وثمة تقسيماً آخر مبني على الموقف، فإذا كان الحديث متعلقاً بالنبي ﷺ أو الصحابة فيسمى «الحديث القولي».

وإذا كان الفعل قد قام به النبي ﷺ وتم تسجيله فيعرف بأنه «حديث فعلي» أي أن النبي ﷺ قام بهذا الفعل.

ولكن لو تم فعل معين دون أن يأمر به النبي ﷺ أو يحرمه، وأعطى موافقة ضمنية بعدم الاعتراض عليه فهذا يسمى حديثاً تقريرياً[5].

وتحت الفئة الأولى من سنن النبي ﷺ تأتي أقواله، فأية أقوال في أي موضوع تقع تحت فئة مجموع الأحاديث القولية.

---

(1) توجيه الأنظار للجزائري (93)، تلقيح فهوم أهل الأثر (187).

(2) فتح المغيث (12)، وقد توفي السخاوي (643هـ).

(3) Dictionary of islam 201, 639, 646, Robson. Hadith (3: 23-29).

(4) دائرة المعارف العقائد (12: 411).

(5) السنة ومكانتها للسباعي (60)، طبقات ابن سعد (11: 1: 54 ـ 55).

أما أمثلة النوع الثاني من الأحاديث فهي متوفرة، فأحاديث الصحابة والتابعين المتعلقة بأفعال النبي ﷺ في سائر العبادات مثل طريقة أداء الوضوء، الصلاة، الصوم.... الخ معروفة بأنها أحاديث فعلية.

أما بالنسبة للفئة الأخيرة، فالمثال الآتي يوضحها: فحين أرسل النبي ﷺ وفداً إلى بني قريظة وقال لأعضاء الوفد، «عليكم بأداء صلاة العصر في بني قريظة» ونفذ بعض الصحابة هذه التعليمات حرفياً، ولم يصلوا العصر حتى وصلوا إلى مقصدهم، على الرغم من أن موعد الصلاة قد حان قبل وصولهم هذا المكان.

وبعض الصحابة الآخرين أدى الصلاة في موعدها لأنهم فهموا أن النبي ﷺ يعني بقوله «أسرعوا في الوصول إلى بني قريظة» موعدها عَرَّف هؤلاء الصحابة النبي ﷺ بقصة خلافهم في تفسير قول النبي ﷺ وافق على تصرف الفريقين. وهذا النوع من الحديث معروف بالحديث التقريري.

إن الإسناد في الحديث لعب دوراً هاماً، وأهميته القصوى واضحة من حقيقة أنه عند إحصاء عدد الأحاديث، فالإسناد ـ والذي من خلاله تم نقل الحديث ـ وليس المتن هو الذي يوضع في الاعتبار، وتلك حقيقة جديرة بالملاحظة، وعليه فالحديث الذي يدعمه إسنادان من الرواة سيكون أفضل من حديث يدعمه إسناد واحد، وبمعنى آخر، إن تعدد الحديث يعني عدد من أسندوه وليست العبرة بالنص[1].

فعلماء أدب الحديث قسموا السنن إلى فئات مختلفة طبقاً لدرجة مصداقيتها وهذه التصنيفات مبنية على أساس المتن والإسناد.

فعلم الحديث الذي يحتوي على مادة ضخمة، قد تطور إلى فروع مختلفة، وتم تلخيص مائة فرع من الحديث في مجموعة أعمال علوم الحديث[2].

3 ـ العلاقة بين الحديث والسنة:

إن السنة تربطها علاقة وثيقة بالحديث والتي تعني أصلاً سابقة، عادة، قاعدة ولكنها سميت فيما بعد ضمناً عادات محمد ﷺ وأصحابه وأوامرهما، ولأننا ناقشنا السنة

(1) توجيه الأنظار (93)، تلقيح فهوم أهل الأثر (187).

(2) تدريب الراوي (9).

تفصيلاً في الفصل السابق، فلندع ذلك الآن، ولكن ما هو جدير بالذكر هنا هو أن نبين الفرق بينهما على الرغم من حقيقة أن الحديث والسنة غالباً ما يُنْظر إليهما كمترادفين[1]، وهذه الحقيقة ليست مصادفة، ولكنها حقيقة واقعة.

إن الحديث في فجر الإسلام كان يشير عادة إلى أمر من سلطة ملزمة من النبي ﷺ أو من أصحابه، ففي حين أن السنة أشارت إلى أنماط دينية ثابتة، وكانت في العادة تعاليم النبي ﷺ بينما الحديث توثيق لهذه السنة، ولهذا السبب علَّق ابن حنبل على أحاديث معينة[2] بقوله: «هذا الحديث يحتوي على خمس سنن»[3].

ويفرق «فنسنك» بين المصطلحين ويقول: «إن الحديث هو الشكل الخارجي للسنة والجانب الداخلي من العادات، فالحديث هو الشكل والسنة هي الجوهر»[4].

ويقول جوليوم: «إن الحديث يحفظ السنة»[5].

وكثيراً ما ذكر «جرونيوم» أن سنة محمد ﷺ مسجلة عادة في الحديث[6].

وسنستشهد ببعض الأمثلة لنبين أنَّ الحديث والسنة غير متطابقين:

(1) فالحسن البصري (المتوفى سنة 110هـ) في خطابه إلى عبد الملك بن مروان يتحدث عن حرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية، ومع أنه لم يستشهد بأي نصٍّ في خطابه إلا أنه يفرق بين الحديث والسنة ويقول: «إن السابقين قد رَوَوْا حكمة الله، واستنّوا بسنة رسول الله»[7].

ويبدو أنه يقصد بالحكمة الحديث الذي رواه الصحابة، بينما السنة تشير إلى الممارسة.

---

(1) توجيه الأنظار (3)، السنة ومكانتها (16)، دستور العلوم (2: 15) تفسير البيضاوي (2: 132) حيث لاحظ الكازروني: السنة أي الحديث.

(2) بالنظر إلى أن موت المسلم في الإحرام بالحج بعد هجرة.

(3) سنن أبي داود (3: 296) في الجنائز، حديث رقم (3238).

(4) Islamic juridhrudevce (30), citing we nsink,s article in moslem world volxl (1921) pog: 239.

(5) Traditions 10.

(6) med islam 108.

(7) Der Islam xxl, 68.

(2) إن الإمام مالك (المتوفى سنة 179هـ) في كتابه الموطأ، كثيراً ما استخدم مصطلح سنة والتي كان يَقْصدُ بها العادات السائدة في المدينة، وكثيراً ما استشهد بالحديث تأييداً لسنةٍ معينة أو نَفْياً لها. فعلى سبيل المثال قام بنقل حديث متعلقٍ بالشفاعة، ثم علق قائلاً: «وعلى ذلك السنة التي لا اختلاف فيها عندنا»[1].

وأوضح «مالك» بصورة قاطعة الفرق بين السنة والحديث، وهو يفضل السنة على الحديث ويقول: «أَحَبُّ الحديثِ إليّ هو ما اجتمع الناس عليه».

وهذا يرجع إلى أنّ مالكاً كان يؤكد بشدة على إجماع أهل المدينة لدرجة أنه أحياناً يتجاهل الأحاديث التي تضمنتها مجموعة كتاباته[2].

ويضرب لذلك بعض الأمثلة. حين يذكر أنه يجوز أن يهب الفرد العمرة لأحد الأفراد سواءً أكان على قيد الحياة أو متوفى بحيث تعود فائدتها على مانحها أو على ورثته. واعترف مالك بجوازها على الرغم من أن عدداً من أحاديثه الموجودة في كتابه «الموطأ» اعترفت بعدم جوازها[3].

وعلى سبيل المثال أيضاً، استشهدَ ببعض الأحاديث التي تجيز الحج بالوكالة سواءً أكان المستفيد الذي يؤدِّي عنه الحج حياً أم ميتاً[4]، ولكنه قال: إن هذه السنة إذا كانت تجوز على الشخص المتوفى فهي لا تجوز على الحي[5].

(3) إن الشيباني (المتوفى سنة 189هـ) والمعاصر لمالك يقول لَوْ أنَّ رجلاً اشترى شيئاً لم يره، فله الخيار في أن يقبله أو يرفضه إذا حضر أمامه هذا الشيء، وتأكيداً لذلك استشهد ببعض الأحاديث واستنتج أن وجهة النظر هذه مقبولة عموماً من الأحاديث، ومقبولة أيضاً بممارسة الناس لها. ولهذا استخدم للعادات كلمة أحاديث[6]، واستخدم للممارسة كلمة سنة، وهنا الفرق.

---

(1) الموطأ (3: 378).

(2) الموافقات (3: 66، 70).

(3) البناء الاجتماعي (174).

(4) الموطأ (138).

(5) حجج أهل المدينة (162).

(6) حجج أهل المدينة (188).

(4) ويقول «أبو يوسف» في شأن المرأة التي طالبت بنصيب في غنائم الحرب: «والحديث في هذا كثير، والسنة في هذا معروفة»[1].

(5) وذُكِرَ عن عبد الرحمن بن مهدي (المتوفى سنة 198هـ) قوله: «إن سفيان الثوري كان حُجَّةً في الحديث لا في السنة، أما الأوزاعي فكان على العكس، وجمع الإمام مالك أفضل صفات الإمامين»[2].

(6) وذكر الذهبي عن الحجة عباس الدوري الذي روى عن ابن معين (المتوفى سنة 233هـ) أنه قال: «إن أبا يوسف كان صاحب حديث، وصاحب سنة» أي أنه حجة في الاثنين[3].

(7) في نصٍّ وُجِدَ في كتاب الطبري (المتوفى سنة 310هـ) تفرقة بين الحديث والسنة ويقول التقرير: إن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كان قاضياً في المدينة وذات يوم حكم في قضية خالف فيها الحديث، وعندما ذهب إلى المنزل، سأله أخوه عبدالله والذي تميز بالحكمة «لعمري يا أخي! أَصَدَرَ منك هذا الحكم اليوم؟ فردَّ محمد: نعم يا أخي! فعلى أي أساس توبخني يا أخي؟ ما الحديث الذي تستندُ إليه؟ فالعرف أو التقليد (الحديث) مهم للغاية لتؤسس عليه حكمك، فردَّ محمد: وماذا عن الممارسة (السنة)؟»[4].

(8) أما أوضح الأمثلة في التفرقة بين السُّنَّة والحَديث فيمكن أن نجده في الفهرست لابن النديم (المتوفى سنة 385هـ) حيث ذكر هذا المرجع كتاب أحمد بن محمد الحِجاجي المَرُّوْزي المؤلف لكتاب: السُّنَّة بشواهد الحديث[5].

---

(1) الرد على سير الأوزاعي (38).

(2) الموطأ (1: 3).

(3) تذكرة الحفاظ (1: 270).

(4) الطبري (3: 2505 ـ 2506).

(5) الفهرست لابن النديم (321).

قلت: هو أبو بكر بن محمد بن الحجّاج المَرُّوْزي، صاحب الإمام أحمد ولد في حدود المئتين، وتوفي في سنة خمس وسبعين ومئتين، وكان إماماً في السُّنَة، شديد الاتباع، له جلالة عجيبة ببغداد.

وكتابه «السنن بشواهد الحديث» ذكر في الفهرست لابن النديم، وفي معجم المؤلفين لكحالة (2: 89)، وله ترجمة في تاريخ بغداد (4: 423 ـ 425)، وطبقات الحنابلة (1: 56)، وتذكرة الحفاظ (2: 631)، وسير أعلام النبلاء (13: 173) (المترجم).

(9) ويقول «شاخت» إنَّ العادات المنقولة عن النبي ﷺ وآخرين لا تتطابق مع السنة، ولكنها تعطي لهذه السنة مصداقية؛ سواءً أخذنا سنة الشافعي، أو سنة مَن جاء بعده من الأئمة باعتبار هذه السنة سلوكاً نموذجياً للرسول ﷺ؛ أو في معناها الأكثر قدماً على أساس أنها: ممارسة تقليدية للمجتمع[1].

ومن الأمثلة التي استشهدنا بها سابقاً أصبح واضحاً أنَّ السنة تشير ـ في معناها الأساسي ـ إلى أعمال النبي ﷺ بينما الحديث تسجيل وتوثيق للسنة، ولكن مجال الحديث لا يقتصر على تسجيل الأعمال فحسب (والذي يسمى عملياً الحديث الفعلي)، ولكنه يشمل أيضاً تسجيل الأقوال (الحديث القولي) ويتضمن أيضاً الموافقة الضمنية للنبي ﷺ في بعض الأعمال (الحديث التقريري).

يجب أن نضع في اعتبارنا أنه في فجر الإسلام كان الهدف الرئيس للصحابة هو ملاحظة سلوك النبي ﷺ ومتابعة كل خطواته في الحياة، والقرآن الكريم الذي وهبه الله للناس والخاص بالعقيدة الجديدة كان مجرد مرشد، ولكنه كان بارع البلاغة إلى درجة الإعجاز في معظم الحالات، فقد تناول القرآن المبادئ العريضة بصفةٍ عامة، وأساسيات الدين، ونادراً ما تعمق في التفصيلات، وكان على المرء أن يرصدَ هذه التفصيلات في أعمال النبي ﷺ، ونتيجة لهذا أصبحت السنة هي بؤرة الاهتمام. وحاول الصحابة أن يطابقوا أعمالهم بعمل النبي ﷺ وبخاصة بعد أن أعلنها القرآن صريحة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2].

وخلاصة القول، أن أساس التصنيف التشريعي في فجر الإسلام كان عمل النبي ﷺ (السنة) وأوضحها النبي ﷺ بنفسه، وذكر أنه قال «صلوا كما رأيتموني أصلي»[3].

وعليه فهذا المعنى يتضمن أنَّ القوانين يجب أن توضع على أساس السلوك الشخصي للنبي ﷺ وقوله أيضاً: «ألا أخبرتموها أنني أفعل ذلك»[4].

---

(1) أصول الشريعة الإسلامية لشاخت، ص (3).

(2) القرآن الكريم (الأحزاب: 21).

(3) صحيح البخاري (1: 165) في الأذان، وإرشاد الساري (2: 17).

(4) حجج أهل المدينة (1: 140 ـ 141)، المسند (1: 257)، والفعل المشار إليه هنا هو «قبلة الصائم لزوجته».

وغنيٌّ عن البيان أن أساس القاعدة يجب أن يكون سلوك النّبي ﷺ، ولهذا فليس بدعاً أن نجد المسلمين في فجر الإسلام قد اهتموا كثيراً بسنة النبي ﷺ، فقد كانت حاجة العصر تستلزم ذلك، وكان يجب الحصول على هذا القانون بهذه الوسيلة فحسب، ومن هنا جاء الاهتمام بسنة النبي ﷺ، ولهذا السبب، فحين نتناول مصدرين أساسيين من مصادر الشريعة الإسلامية نجد أن علماء الدين يستخدمون مصطلح الكتاب والسنة[1]، أو القرآن والسُّنَّة[2]، لا الكتاب والحديث ولا القرآن والحديث.

ولكن حينما استخدمت السنة بمفهوم منطقة بعينها، كان المقصود بها سُنَّة النبي ﷺ كما نفذها أهل هذه المنطقة نفسها. وبمعنى آخر فإنَّ مفهومَ السُّنَّة النبوية تضمن أفكاراً موروثة متمثلة في سنة النبي ﷺ والصحابة، ولعل تفضيل مالك[3] للسنة على الحديث كان يرجع إلى اعتقاده أن المستودع الأمين لسنة النبي ﷺ كان أفعال الصحابة لا النصوص المكتوبة، ولذلك يقول «إن أحب الأحاديث إليَّ هي الأعمال التي ارتضاها الناس»[4].

ومما هو جدير بالملاحظة أنَّ حقيقة كون السنة أساس الشريعة الإسلامية لا يعني بأي شكل من الأشكال التقليل من أهمية الحديث، لأنه يعتبر واحداً من المصادر التي من خلالها عُرِفَتْ سُنَّة النبي ﷺ، وعندما يتناول الحديث سنة غير معروفة على الإطلاق فالعادة السائدة في هذه الحالة الخاصة يتم استبدالها بالسنة المكتشفة حديثاً.

ولنأخذ مثالاً من الحقبة الإسلامية في مراحلها الأولى؛ فقد حَرَّم عمر استخدام العطور في حالة الطواف حَوْلَ الكعبة، واستمرَّ هذا الوضع حتى عصر حفيد عمر والذي كان يسمى «سالماً» وعندما وجد سالم حديثاً للنبي ﷺ يتعارض مع هذه العادة السائدة، أقلع عن هذه العادة والتزم بسُنَّةِ النبي ﷺ[5].

---

(1) سنن الدارمي (1: 145)، جامع بيان العلم (2: 61، 190 ـ 193) فتح الباري (13: 263)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (1: 14).

(2) Margoliouth, Omar's instructions to the Kadi Jras (1910), p. 309.

(3) الزرقاني على الموطأ (3: 378).

(4) المصدر السابق (3: 66).

(5) اختلاف الحديث للشافعي (25).

ووجد مثال آخر في كتاب الأزرقي «أخبار مكة». حيث ذكر أن أَهْلَ مكَّةَ اعتادوا أن يَدْفنوا موتاهم في مكان بين أودية اليمنى (والمعروف الآن بشعب العفاريت)، وشعب الجزرين (والمعروف الآن بشعب الصافي)، وهذه العادة كانت سائدة في العصر الجاهلي، وفي فجر الإسلام. ولكن عندما عرف الناس من الحديث الذي أوضح النبي ﷺ فيه أن الشعب والمقبرة مكانان مفضلان، بدؤوا بِدَفْنِ موتاهم في المكانين المذكورين في حديث النبي ﷺ[1].

وعلى الرغم من هذا الخلاف في المعنى، فأحياناً يستخدم أحدهما مكان الآخر في المعنى، والسبب في هذا يرجع إلى الخصائص العامة التي تميزهما من حيث إن محتوى الاثنين يمتد جذوره إلى العادات والتقاليد[2].

واستخدم أبو يوسف ـ في بداية تطور استعمال تعبيري: السنة، الحديث ـ السنة بمعنى الحديث؛ فعند مناقشة قواعد زكاة الذهب والفضة يقول أبو يوسف: «إن السنة أجازت تقييم الزكاة المطلوبة على الذهب والفضة على أساس الوزن لا على أساس القيمة، فلو أن رجلاً يملك ما يساوي خمسة عشر مثقالاً من الذهب لأُعْفِيَ من الزكاة حتى ولو وصلت قيمة الذهب إلى ألف درهم، والسبب في هذا كما يقول أنه تم بناءً على حديث يوجب الزكاة على الرجل الذي يملك ذهباً يساوي عشرين مثقالاً»[3].

ويبدو في هذا المثال أن السنة والحديث استخدما بطريقة تبادلية فبجانب السنة كان هناك العديد من المصطلحات التي استخدمت في بداية الإسلام وتحمل معنى الحديث، وكان أكثرها استخداماً العلم الذي أصبح محور حياتنا الآن.

4 ـ مفهوم العلم في علاقته بالحديث:

إن العلم أو المعرفة مصطلح عام لأي معلوماتٍ تاريخية أو دينية أو قانونية وهو مصطلح للعلم أيضاً كعلم النفس، وعلم الحديث، وعلم الحيوان.

---

(1) أخبار مكة (2: 171).

(2) دراسات إسلامية لجولد تسيهر (2: 12/ 25).

(3) اختلاف الحديث (130).

وفي الحقبة الإسلامية الأولى كانت الكلمة تستخدم أساساً لتشير إلى المعرفة الدينية وبخاصة معرفة القرآن والحديث.

وفي سياق آخر كانت هذه المعرفة مقصورة على الحديث.

وطبقاً لما توفر عندما من مصادر ودلائل، فأهم المجالات التي استُخْدِمَ فيها هذا المصطلح هي:

أ ـ المعرفة بصفة عامة:

على المستوى العادي، فالمصطلح يعني المعرفة بصفة عامة؛ فعلى سبيل المثال يقول ابن عباس: «العلم بمعنى عام هو كل ما لا يمكن أن يحفظه القلب، وعليه فالبحث هو منواله»[1].

ولكي يؤيد وجهة نظره هذه استشهد بالقرآن الكريم وقال: ألم نسمع كلمات الله الذي يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

ويستخدم القرآن مصطلح علم. وكل صيغه الفعلية بمعنى المعرفة بصفة عامة، ويقول على سبيل المثال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[3].

ويقول أيضاً عندما سأل الملائكة عن أسماء الأنبياء ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4].

ويقول سبحانه عن نفسه باعتباره يعلم كل ما في السموات، وما في الأرض، ويَعْلَمُ ما ظهرَ وما بَطَنَ ويعلم بما في صدورنا: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[5].

---

(1) تقييد العلم (141).

(2) تقييد العلم (141)، القرآن الكريم (الزمر: 18).

(3) القرآن الكريم (الأحزاب: 63).

(4) القرآن الكريم (البقرة: 32).

(5) القرآن الكريم (التغابن: 4).

ونجد كثيراً من الإشارات لكلمة علم، وأهل العلم في سيرة ابن هشام[1] بمعناها الجديد، فكما ذكرنا سابقاً كان العلم يعني المعرفة بصفةٍ عامة، أما هنا فيستخدمه ابن هشام بمعنى العالم، مالك المعرفة بصفةٍ عامة، ولهذا فتعبير أهل العلم بالشعر يوضح أنهم علماء في الشعر[2].

ب ـ المعرفة التاريخية:

إن كلمة علم تعني أيضاً الإحاطة أو المعرفة بالماضي، وتشير إلى المعرفة التاريخية، وصاحب هذه المعرفة يُعرف بأنه أهل العلم، أي مؤرخ، وعالم بالمغازي[3].

فالأزرقي يستخدم مصطلح أهل العلم للعلماء الذين يملكون معرفةً جغرافيةً أو تاريخيةً بصفة خاصة[4].

وعلى سبيل المثال ففي وصفه لحادث تدمير الكعبة يقول: وعندما قصد ابن الزبير أن يعيد بناء الكعبة سأل رجالاً من أهل العلم من مكة عن الأماكن التي جلبت قريشٌ منها الأحجار التي بنوا بها الكعبة[5].

ويزودنا ابن سعد بمثال آخر حين يقول: «إنَّ العلم يشير إلى معلومات تاريخية، وذكر بعض هؤلاء الذين يروون العلم، مثل مسعود بن الربيع الذي كان له أخٌ يسمى عمرو بن الربيع، وكان مصاحباً للرسول ﷺ وشَهِدَ غَزْوة بدر»[6].

ولكي نعطي تفسيراً تاريخياً معيناً لذلك يقول ابن هشام: «إن بعض العلماء روى لي أن عبد الرحمن بن عوف جُرِح في فَمه، وكُسِرَتْ أسنانه، وأصيب بعشرين جرحاً أو أكثر، بعضها كان في قَدَمِهِ، ونتيجة لهذا أصبح أعرج أو مقعداً»[7].

---

(1) سيرة ابن هشام (2، 18، 44، 51، 56) ومواطن كثيرة.

(2) سيرة ابن هشام (4، 44، 416، 549، 643).

(3) سيرة ابن هشام (18، 51، 56، 184، 209، 459، 588، 689، 882) ومواطن أخرى.

(4) أخبار مكة (2: 32، 48، 56، 145، 161، 162، 174، 205، 215، 231).

(5) أخبار مكة (1: 145).

(6) طبقات ابن سعد (3: 1: 119).

(7) سيرة ابن هشام (574).

إن كلمة علم التي تشير إلى معرفة أحداث تاريخية معينة وَجَدَت لها دليلاً في بحث وجد في كتاب الأغاني، ويقول هذا البحث: «روى الزبير أن بعض العلماء بعض رواة العلم) رووا لي أنه عندما زار يزيد بن عبد الملك الأهواز... الخ»[1].

فكلمة علم في تعبير رواة العلم مصطلح آخر لعلماء التاريخ يشير أيضاً إلى معلومات تاريخية.

وذكر ابن سعد كلمة بهذا المعنى عندما قال: «بعض رواة العلم ذكروا أن حجر بن عدي زار الرسول ﷺ ومعه أخوه...»[2].

(جـ) المعرفة الدينية والشرعية:

إنَّ المعرفة الدينية أثناء القرن الأول من الإسلام تكونت من القرآن والحديث والفقه والتفسير، والمصطلح الشائع الذي استخدم لكل هذه العلوم كان كلمة علم «فالعلم في المراحل الأولى من الإسلام كان متكاملاً ولكن مركباً» كما قالت «نبيهة عبود» وأضافت: وكان يعتمد على القرآن والحديث والسنة، والقانون، والعادات، دون تفرقة واضحة بين علم القرآن وعلم الحديث، وعلم الفقه، وقد تطور كل علم من هذه العلوم إلى فروع مختلفة[3].

ويقول «جولد تسيهر» يشير العلم إلى المعرفة القانونية الدقيقة وخاصة فيما يتعلق بالأحكام التشريعية المسجلة عن النبي ﷺ وأصحابه فضلاً عن القرآن الكريم وتعبيراته[4].

وفي المرحلة الأولى من الإسلام لم يكن هناك تفرقة بين العلوم التشريعية، والعلوم الدينية، ووجد الاثنان في القرآن وفي تعاليم الرسول ﷺ جنباً إلى جنب، وقصد بالعلم في هذه المرحلة معرفة القرآن والحديث والفقه[5]، وكلمة أهل العلم تشير إلى علماء هذه العلوم بوجه عام.

---

(1) الأغاني (4: 250).

(2) طبقات ابن سعد (6: 151).

(3) البرديات: نبيهة عبود (2: 14).

(4) دائرة المعارف الإسلامية (2: 110).

(5) طبقات ابن سعد (2: 2: 100).

ويعلق عبدالله بن مسعود قائلاً: «لو أن علم كافة القبائل العربية قوبل بعلم عمر لرجح علم عمر»[1].

والمعنى المقصود هنا المعرفة الدينية المعروفة في ذلك الوقت، لأنه من الطبيعي بالنسبة لعمر أنه لا يمكن مقارنته بمعاصريه في المعرفة العلمية والأدبية (وبخاصة الشعر) في ذلك الوقت.

وذكر أن عمر كان لديه الكثير من المعرفة الدينية (العلم) لدرجة أنه تفوق على جميع علماء الفقه في المدينة[2].

وفي هذا البحث نجد أن كلمة فقه وعلم استخدما كمترادفين في المعنى بالنسبة للمعرفة الدينية.

واستخدم عروة بن الزبير كلمة العلم بهذا المعنى عندما نصح أبناءه وقال: «تعلموا العلم، لأنه مع أنكم صغار قومكم الآن، ففي المستقبل القريب ستكونون كبراءه»[3].

وفي تفسير معنى «العلم والفقه» يقول جب (Gibb) ما إن انقضى القرن الأول من الإسلام حتى بدأ العلماء يتخصصون في فرع أو آخر من فروع المعرفة الدينية.

ويواصل قائلاً: وكان يمكن تمييزهم بمصطلحات متقاربة: فالعلم المقصود به المعرفة الفعالة يشير إلى المعرفة الدينية (بما في ذلك العلوم الشرعية) والفقه (الفهم) يشير إلى التشريع وإن كان مبنياً على الدين[4].

وعلى الرغم من أن تعبير أهل العلم يشير عادة إلى العلماء بصفة عامة، فهو أحياناً يشير إلى علماء المعرفة الدينية بصفة خاصة.

وعلى سبيل المثال يميز الأزرقي[5] بين المعنى العام لعلماء، وأهل العلم بقوله إنَّ أهْل العلم: «علماء توفر لهم قدر كبير من معرفة الدين الإسلامي».

---

(1) طبقات ابن سعد (2: 2: 100).

(2) طبقات ابن سعد (2: 2: 99).

(3) المحدث الفاصل (7ب)، البيان والتبيين (2: 202).

(4) Mohammedanism (89 – 90).

(5) أخبار مكة (2: 141).

ولهذا فهو عندما أعطى وصفاً لمكان معين قال: «هذا هو المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ والناس وأهل العلم جميعهم تبعوه وصلوا في نفس المكان».

واستخدم الأزرقي تعبير أهل العلم لعلماء التاريخ، وعلماء الحديث على السواء[1].

والأوزاعي من جانب آخر يفرد مصطلح «علم» لعلماء الحديث والفقه، وهو لا يشير إلى واحد بعينه بل إلى علماء الحديث والفقه عندما يقول: «وعلى ذلك أهل العلم»[2] وصرح بهذه العبارة ليبرر وجهة نظره في تخصيص هذا التعبير لكلا العِلْمين، وإن كان أبو يوسف قد ضم إليهما علم التشريع.

(د) العلم يعني الحديث:

وجدنا أن مصطلح العلم في فجر الإسلام أشارَ إلى مجموعة من العلوم الدينية ألا وهي القرآن والحديث، والفقه، ومع زيادة أهمية الحديث، اقتصر هذا المصطلح على علم بعينه، وفي المجموعات المتخصصة من الحديث نجد أجزاءً مستقلة متخصصة للعلم، ويحتوي هذا الجزء على بحوث عن فوائد تعلم الحديث. وتعبيرات «ابتغاء العلم» و«طلب العلم» في النصوص التقليدية يشير إلى مواصلة البحث في الحديث.

فعبارة طلب العلم استخدمت أساساً مرتبطة منذ فترة طويلة بالرحلات الشاقة من مكان إلى آخر لتعلم الحديث من مشاهير العلماء، وسوف نستشهد ببعض الأمثلة حيث ارتبطت كلمة علم بطلب تعلم الحديث:ـ

1 ـ يذكر يزيد بن عمير السكسكي تلميذ معاذ بن جبل أن أستاذه طلب منه أن «يطلب العلم» من أربعة علماء: عبدالله بن مسعود، عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وعويمر بن أبي الدرداء[3] وهم أشهر علماء الحديث.

2 ـ ويقول حبيب بن أبي ثابت (المتوفى سنة 119هـ) «في البداية طلبتُ العلم دون أي هدف، ثم ألهمني الله الهدف كذلك»[4].

---

(1) أخبار مكة (2: 34، 101، 102، 164، 179).

(2) الرد على سير الأوزاعي (41 ـ 42).

(3) طبقات ابن سعد (2: 2: 3)، (4: 1: 61) مع اختلاف يسير.

(4) طبقات ابن سعد (6: 223)، منصور بن المعتمر توفي (132هـ) وقد سجل الشيء نفسه مع اختلاف طفيف (طبقات ابن سعد 6: 235).

3 ـ وذكر أن صالح بن كيسان المعاصر للزهري قال: «إن الزهري وأنا اتجهنا معاً نطلب العلم، وقررنا أن نلتزم بالسنن في الكتابة»[1].

4 ـ ذات مرة رأى سعيد بن المسيّب أحد سكان المدينة في مكة ونَصَحَهُ أن يعود إلى مدينته خشية أن يرتكب بعض الذنوب في الحرم، فردّ الرجل: «إنما جئت أطلب العلم»[2].

وقد رأينا أن عبارة طلب العلم في فجر الإسلام تشير إلى تحصيل فرع معين من المعرفة ألا وهو الحديث، وبمعنى آخر فمصطلح العلم في العبارة السابقة يبين أن العلم المقصود هنا هو علم الحديث لا العلم بصفة عامة.

إن كتب أبي خيثمة، وابن عبد البر، والخطيب البغدادي[3] تثبت أن العلم في عصرهم كان يفيد ضمناً «الحديث» لأن المادة الأساسية لهذه الكتب كان الحديث ويبدو من البحث الموجود في كتاب ابن عبد البر «الجامع» أن مصطلح العلم استخدم بمعنى الحديث حتى في عهد عمر.

ويقول البحث: إن الخليفة عمر قصد ذات مرة الذهاب إلى العراق عندما سمع عن انتشار وباء الطاعون هناك. وهذا الخبر أثار جدلاً تشريعياً، وكان هناك خلاف في الرأي حول ما إذا كان على المسلمين أن يدخلوا هذا المكان أم لا، ففي حالة دخولهم من الجائز أن يصبحوا ضحية الوباء، أما عدم دخولهم فيعني الفرار والمخالفة لأوامر الله، والهرب من المصير المحتوم!

وحسم هذا الخلاف عبد الرحمن بن عوف عندما جاء وقال: «عندي علمٌ بخصوص هذه المسألة»، ثم روى حديثاً يمنع المسلم من دخول منطقة بها وباء[4]، وكلمة العلم هنا لا تعني غير الحديث.

وهناك دليل آخر يقول: «أنا عندي من الحديث علم» هذا العلم هو الحديث[5].

---

(1) تقييد العلم (106 ـ 107).

(2) أخبار مكة (2: 107).

(3) هذه الأعمال (الكتب) هي: كتاب العلم ـ جامع بيان العلم ـ وتقييد العلم.

(4) جامع بيان العلم (2: 28).

(5) جامع بيان العلم (2: 28).

وعلى سبيل المثال فإن للزهري (م ـ 124) أثراً يعلق فيه على حديث معين، فيقول: «إن هذا العلم لم يكن معروفاً عند العراقيين»[1].

واستخدم التعبير نفسه بالمعنى نفسه، وقال: «العلم يحقق حاجات دينية واجتماعية فضلاً عن أنه حقيق بالتقدير لأنه عمل من أعمال العبادة»[2].

بل وحتى قبل الزهري، فإن أبا بكر بن عبد الرحمن (المتوفى سنة 94 هـ) استبدل كلمة حديث بكلمة العلم.

وذكرت عائشة أنها عندما أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن عن سُنَّةٍ معينة[3] للنبي ﷺ علق قائلاً: «لم أسمع هذا العلم من قبل»[4].

واستخدم عبدالله بن عمر (المتوفى سنة 74هـ) أيضاً هذه الكلمة بهذا المعنى. عندما قال: «سأخبركم عن ذلك بالعلم»[5].

والقول بأن العلم كان ابن عمر يعني به الحديث واضح وجليٌّ من حقيقة أنه بعد أن صرَّحَ بالعبارةِ السابقة استشهد بحديث للنبي ﷺ[6].

أما عالم الحديث أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي في تناوله لمسألة كتابةِ ودراسة الحديث فقد ذكر: أنَّ الباحثَ في علم الحديث يجب أن يكتبَ ويتعلَّمَ ويدرسَ ما تيسَّرَ له مِنْ أحاديثَ في مدينتِهِ أولاً وعندما ينتهي من العلم المتيسر في مدينته يولي نظره إلى مدينة أخرى بَحْثاً عن العلم، وهنا استخدم هذا العالم: الحديث والعلم كمترادفين[7].

وفي بحثٍ آخر يقول يحيى بن سعيد: «وجدتُ النَّاسَ كارهينَ للكتب، ولكن لو كُتِبتْ هذه الكتب (في عصر سعيد بن المسيّب) لتهيَّأ لنا ما تهيأ لسعيد بن المسيب من علم ومن رأي»[8].

---

(1) الموضع السابق أيضاً.

(2) Duri, Al-zuhri, a study in the Beginning of History Writing in Islan, Bulletion of the school of oriental African Studies xix, I, p. 8.

(3) الطواف بين الصفا والمروة.

(4) صحيح البخاري (1: 414).

(5) السيرة (999).

(6) السيرة (991).

(7) تاريخ دمشق لابن عساكر (46).

(8) طبقات ابن سعد (5: 104).

ويقال على سبيل المثال: «مَنْ سمع العلم، عليه أن يجعله حُجَّةً فيما بينه وبين النبي ﷺ»[1].

أما الناقد للحديث ـ ابن المديني ـ فيتناول مصطلح العلم بمعنى الحديث عندما يقول: «إنَّ نصفَ العلم (دراسة الحديث) يتكون مِنْ معلومات عن رواة هذا الحديث (معرفة الرجال)»[2].

فالعلمُ الذي يشير إلى الحديث واضحٌ من هذا الخبر: لقد قال بقية بن الوليد: «لقد دفع إليَّ بجير مصحفاً لخالد بن معدان فيه علمه أخذه منه مكتوباً في تختين، وله دفتي المصحف، وله عرى وأزرار»[3].

ويشير كتاب خالد بوضوح إلى مجموعة أحاديثه؛ ولهذا فمن الواضح أنّ مصطلح علم استُخْدِمَ هنا كمرادفٍ لحديث.

وهناك أمثلة عديدة تبينُ أنَّ العِلْمَ استُخْدِم ليشيرَ إلى الحديث:

(1) يقول مالك: «لقد رأيتُ العلم يُقْرأ على ابن شهاب الزهري»[4].

(2) وذكر عن مَعْمَر قوله: « لقد قرأتُ العِلْمَ على الزهري»[5].

(3) ذكر مَعْمَر: «اعتدنا أن نَقْرَأ العلم على أيوب»[6].

(4) ويقول حسن بن عبد الرحمن: «إنَّ العِلْمَ إذا لم يصاحبه إسنادٌ مثل البيت بدونِ سقف، أو الخيمة بدون دعامات»[7].

(5) وذكر عن مجاهد المتوفى (103هـ) أنَّهُ كانَ يكرهُ تسجيلَ العلم في كتب[8].

---

(1) معرفة علوم الحديث للحاكم (63).

(2) بحوث في تاريخ السنة (29).

(3) المصاحف لابن أبي داود (134 ـ 135).

(4) الكفاية (387).

(5) الكفاية (388، 411).

(6) الكفاية (387).

(7) الكفاية (233).

(8) سنن الدارمي ط. دمشق (1: 121).

(6) وفي متابعة الرامَهْرَمْزي لتطورِ أدبِ الحديث استخدم تعبير العلم ليشيرَ إلى الحديث[1].

(7) وذكر أنَّ أبا قلابة وأبا المليح اعتادَا أنْ يُدَوِّنَا العِلْم[2].

(8) ويقال أن الزُّهْري هو أوّل من دَوَّنَ العلم[3].

(9) ويقول عمر بن عبد العزيز في خطابه إلى أهل المدينة: «ابحثوا عن حديثِ رسولِ الله ﷺ أينما يكون، والتزموا بتدوينه كتابةً لأنَّ كل ما أخشاه ضَياعَ العِلْم وانقراضَ العلماء»[4].

(10) وطلب أنس بن مالك من أبنائه تدوين العلم كتابةً[5].

(11) أما مكحول المشهور برحلاته في تحقيق الأحاديث فيقول: «ما خرجت من مِصْرَ حتى ظننت أنه ليس بها علمٌ إلا وقد سمعته، ثم قدمت المدينة فما خرجت منها حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا وقد سمعته»[6].

(12) وذُكر أنَّ أبا ذر كان بخيلاً فيما يتعلق بأمورِ دينِه، وكان حريصاً على العلم[7].

(13) ونصحَ سفيان بن سعيد أبناءَهُ قائلاً: «تعلموا هذا العلم فإذا تعلمتموه فاحفظوه، فإذا حفظتموه فاعملوا به، فإذا عملتم به فانشروه»[8].

(14) وقال ابن «سيرين» عن الحديث: «مما لا ريب فيه أنَّ هذا العلم دينٌ، ولهذا فكونوا حريصين عمن تنقلون عنه»[9].

---

(1) المحدث الفاصل لوحة 79أ ـ 79ب (مخطوط).

(2) المحدث الفاصل لوحة.

(3) جامع بيان العلم لابن عبد البر (1: 73، 76)، خطط المقريزي (2: 33) صفة الصفوة لابن الجوزي (2: 78) ط. الهند. قواعد التحديث للقاسمي (46).

(4) المحدث الفاصل (35 ب)، صحيح البخاري (1: 37) في كتاب العلم.

(5) العلم لأبي خيثمة: زهير بن حرب مخطوط لوحة (10 أ)، والمحدث الفاصل لوحة (34 أ).

(6) العلم لأبي خيثمة لوحة (5 أ)، وطبقات ابن سعد (7: 2: 160).

(7) طبقات ابن سعد (4: 1: 170 ـ 171).

(8) طبقات ابن سعد (6: 258).

(9) طبقات ابن سعد (7: 1: 141)، المحدث الفاصل لوحة (42 أ)، وهذا القول نفسه منسوب لمالك بن أنس مع زيادة: «على الرغم من أنني سمعت من سبعين شيخاً محدثاً، وتلقيت دروسي في مسجد النبي ﷺ، فلم أجمع منها شيئاً».
انظر أيضاً: الكفاية (248)، والقول نفسه منسوب للضحاك بن مزاحم انظر المحدث الفاصل لوحة (42 أ).

(15) وعندما سئل «أمامة الباهلي» (المتوفى سنة 86هـ) من حسن بن جابر عن كتابة العلم؟ فأجاب الباهلي: «لا ضرر من ذلك»[1].

(16) وذكر ابن سعد عن عبدالله بن المبارك: «أنه تعلم وروى عدداً كبيراً من الأحاديث، وكتب كتباً كثيرة عن الحديث (في أبواب العلم) وسافر إلى العراق، والحجاز، والشام، ومصر، واليمن، وتعلم الكثير من العلم»[2].

(17) وذكر أنَّ أولاد خالد بن دينار تعلموا العلم على أبيهم، ورووه بدورهم إلى آخرين[3].

(18) ويقال أن الضحاك بن عثمان، ومغيرة بن عبد الرحمن تعلما العلم ونقلاه إلى الآخرين[4].

(19) وعن إبراهيم بن عبدالله بن حنين يقال: أنه كان واحداً من رواة العلم، ومن بينهم أيضاً الزُّهْري، وآخرون، قاموا بنقلِ الأحاديث[5].

إن معنى العلم باعتباره مرادفاً للحديث أصبحَ واضحاً عندما ننظر إليه في إطار الرأي، وخاصةً الرأي الشخصي أو الاجتهاد.

ويذكر ابن سعد عن ابن جريج أنه عندما كان عطاء بن رباح يروى له أي شيء، اعتاد ابن جريج (المتوفى سنة 150هـ) أن يسأله عما إذا كان هذا من العلم أو من الرأي، واعتاد بالنسبة للحديث أن يستخدم كلمة علم، وبالنسبة للرأي الشخصي كان يستخدم كلمة «رأي»[6].

ويذكر ابن عبد البر في كتابه الجامع[7] العديد من الأحاديث التي يتضح فيها الفرق بين العلم والرأي.

---

(1) طبقات ابن سعد (7: 2: 137).

(2) طبقات ابن سعد (7: 2: 104 ـ 105).

(3) طبقات ابن سعد (5: 306).

(4) طبقات ابن سعد (4: 2: 89).

(5) طبقات ابن سعد (5: 211).

(6) طبقات ابن سعد (2: 2: 134) و(5: 345)، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (2: 30 ـ 31).

(7) جامع بيان العلم (2: 28 ـ 31، 33، 34).

وفي هذه الأبحاث تم استخدام كلمة «علم»، لتشير إلى الحديث.

ويميز« فنسنك» «Wensinck» بوضوح في كتابه «عقيدة المسلم» بين كلمتي العلم والرأي فيقول بلغة الحديث: «فالعلم يستخدم بمعنى المعلومات الدينية، وبخاصة في علاقتها بالحديث نفسه من حيث المعرفة الدينية، أما الحديث بصفةٍ عامة ـ والذي يتم فيه قدح زناد الفكرِ ـ فهو الرأي»[1].

وتعرض «Petersen» أيضاً لهذا التعريف وقال: «لم يقصد العرب بالعلم وبخاصة في علاقتهِ بالمسائل الدينية بصفة عامة إيجاد أشخاص لهم قدرة على منطقةِ الأحداث، ولكن كان هدفهم إيجاد أشخاص لهم القدرة على أن ينقلوا بعض الآراء، وبعض الأوامر القرآنية، أو نقل أحاديث النبي ﷺ، أو سنة أصحابه»[2].

5 ـ «الأثر والحديث»:

الأثر (جمع آثار) مصطلح آخر هام، وقد استخدم في الحقبة الإسلامية الأولى ليشير إلى الحديث، والأثر حرفياً يعني علامة، أو بقايا كما في هذا البيت للأحوص:

لَـوْ دبَّ حَـوْلِيٌّ تحـت مِـدْرَعِهَا ... أَضْـحَى مِـنْ دَبيـبِ الـذَّرِّ آثـارُ[3]

بمعنى: لَوْ أنَّ نملةً زحفت عليه لتركت أثراً على جسمه.

إنَّ بقايا المنازل القديمة التي تعوَّد أن يعيش فيها محبوبات الشعراء العرب عرفت أيضاً باسم الأثر، وعلى سبيل المثال يقول «لبيد»:

«لا عَيْنَ منه ولا أثر»[4].

---

(1) عقيدة المسلم (111).

(2) علي ومعاوية ص (16).

(3) الأغاني (4: 251).

قلت: والبيت في ديوان الأحوص، ص (122).

والحولي: ما أتى عليه حول.

والذر: صغار النمل.

والمدرع: ضرب من الثياب. (المترجم).

(4) دراسات إسلامية لجولد تسيهر (2: 8/ 21)، رقم (3).

والأثر أيضاً يعني وقع الأقدام[1]، أو البصمة، واستخدمه النبي ﷺ بهذا المعنى فقال: «ما من نبي إلا وله أتباع وأصحاب يتبعون أثره، وترشدهم تعاليمه»[2].

وربما يتضح من هذه المعاني أنَّ مصطلح الأثر استخدم بمعنى حديث، والحديث لا يعدو أكثر من وعاء لحفظ تعاليم محمد ﷺ؛ فتسجيل كلمات محمد وأفعاله تم حفظها في شكل حديث، وعرفت تحديداً باسم «الأثر».

أما بخصوص المعاني الحرفية الأخرى مثل: وقع الأقدام، فيمكن أن نقول أنه لكون الرسول ﷺ يحتذى به، ويقتفى أثره في كل منحى من مناحي الحياة، فكان سلوكه يسمّى أثراً ما في ذلك أدنى شك. والأثر هو مرادف للحديث.

وبعد وفاة محمد ﷺ تبارى الصحابة في التمسك بمسلكه وطريقه، ولهذا فتعبير الأثر يعني «وقع أقدام» في الأماكن التي سار فيها الرسول ﷺ، وبالتالي أصبحت مرادفةً لكلمة «حديث».

وعلى المستوى العملي فكلمة «أثر» استخدمت للعادات المتصلة بالصحابة والتابعين وأتباع التابعين[3]، ومع هذا فقد تمسَّكَ علماء خراسان بالمصطلح الذي يعني أساساً: عادات الصحابة[4].

وكان هذا التعريف العملي هو أحدث التعريفات؛ ففي البداية استخدم بالمعنى العام واشتمل على العادات المتعلقة بالنبي ﷺ[5].

ولنضرب مثلاً لهذا بمصطلح كتاب «الأثر» لأبي يوسف والذي لم يضم عادات الصحابة فحسب بل عادات النبي ﷺ أيضاً.

واقتصار مصطلح أثر على الصحابة فحسب يرجع إلى الشافعي الذي ميزه عن العادات الصادرة عن محمد ﷺ[6].

---

(1) السيرة (331).

(2) مسند الإمام أحمد (6: 187) طبعة شاكر.

(3) قواعد التحديث (36)، وتوجيه النظر إلى أصول الأثر (93).

(4) تدريب الراوي (4)، توجيه النظر (3)، دستور العلماء (1: 37)، تاج اللغة للجوهري (3: 4).

(5) الخطط (2: 332)، وقواعد التحديث (36)، توجيه النظر (3)، تدريب الراوي (4).

(6) يوسف شاخت: مصادر الشريعة الإسلامية (16).

وقبل الشافعي كان هناك مصطلح عام للأشياء المادية المنقولة من عصور مضت. ولنأخذ مثالاً على ذلك: يقال إن سعيد بن المسيب «كان من أفضل الناس في علم الأثر وأذكاهم في الرأي (أعلم الناس بما يقدمونه من الأثر وأفقههم في رأيه)[1]؛ فكلمة أثر استخدمت هنا لتشير إلى العادات بصفة عامة وليس فقط العادات التي أتى بها الصحابة فحسب.

وتناول ابن المقفع أيضاً «الأثر» بمعنى العادات بصفة عامة، وعن الكتابة أثناء عصر الخليفة المنصور (من 136 هـ ـ 158 هـ) يقول: «لم يكن لأحدٍ الحقّ في أن يدلي برأيه في الأمور العسكرية، وفي التنظيمات المدنية، وفي كافة الأمور التي لا يوجد بشأنها أثر بصفة عامة عدا الخليفة»[2].

واستخدم أبو أسماء أيضاً مصطلح الأثر بمعنى الحديث بصفة عامة، وذلك عندما سأل أبو حنيفة عن الشخص الذي يجب أن يتعلّم منه الأثر[3] ويبدو أن سؤاله لا يشير إلى أحاديث الصحابة فحسب، ولكن يشير إلى الأحاديث بصفة عامة.

واستخدم ابن سيرين أيضاً كلمة الأثر بمعنى الحديث بصفة عامة، وقال في وَصْفِهِ لسنة أبي بكر في تناوله للأمور التشريعية: «عندما تصادفه قضية لا يوجد فيها حكم في كتاب الله، أو أثر في السنة الإسلامية، كان عادةً ما يقول في مثل هذه القضايا: أجتهدُ برأيي، ولو ثَبَتَ صحته فهو بفضل الله، ولو ثبت خطأه فمردّه إليَّ وأطلبُ من الله أنْ يغفرَ لي»[4].

ونجد مراجع عديدة للأثر في كتاب «الحجج» للشيباني حيث استخدم الأثر بمعنى الحديث، أو العادات بصفة عامة.

ولنأخذ مثالاً آخر: فإذا كان القياس مناقضاً للحديث فيعلق الشيباني بأنه لا يوجد قياس في وجود الأثر[5]، وهذا الرأي يتضمن أنَّ القياس يستخدم في المسائل التي لا يوجد

---

(1) طبقات ابن سعد (5: 90).

(2) الحرب والسلام (29)، رسائل ابن المقفع في الصحابة، من رسائل البلغاء لكرد علي (الطبعة الثالثة ـ القاهرة 1964) ص (121 ـ 122).

(3) الكفاية (203).

(4) تاريخ الخلفاء للسيوطي (105)، وطبقات ابن سعد (3: 1: 126).

(5) الحجج للشيباني (46).

فيها حكم محدد في الأحاديث، فكلمة الأثر في هذا التقرير استخدمت بما لا يدع مجالاً للشك بمعنى حديث، أو العادات بصفة عامة.

واستخدم أبو يوسف هذه الكلمة بهذا المعنى عندما قال: «القياس متميز عن الأثر من جانب، والاستحسان من جانب آخر»[1].

وحتى الشافعي فقد خَصَّصَ مصطلح «الأثر» كقاعدة لعادات الصحابة، وأحياناً استعمله للحديث بوجه عام.

وهذا دليلٌ واضح عندما قارن الحديث بالفقه وعلم الكلام.

وعندما فرق بين علماء التشريع، وعلماء الحديث، وبين الفلاسفة استخدم مصطلحا: حديث، وأثر بدون تمييز، في حين كان علماء الشريعة والفلاسفة يعبر عنهم بمصطلحات أهل الفقه[2]، وأهل الكلام[3]، بينما كان يعبر عن علماء الحديث لا باسم أصحاب الحديث[4]، وأهل الحديث[5]، فحسب بل باسم أهل الأثر[6] أيضاً، ويكون الحديث والأثر متشابهين في المعنى، فاسم الفاعل «محدث» و«أثري» كان يقصد بهما: رواة الحديث[7].

والأثر يشبه العلم في أنه مغاير للرأي التشريعي، ورأينا تعليق عطاء بن رباح على هذه النقطة عندما استخدم الأثر في مقابل الرأي وسمى الرأي بالعلم، واعتبره مرادفاً لكلمة حديث[8].

6 ـ الحكمة والحديث:

إنَّ كلمة حكمة وجدت في كل من أدب ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام؛ ففي الشعر الجاهلي استخدم هذا المصطلح للأقوال المتسمة بالعقلانية، والكلمات المتعلقة

---

(1) الخراج (182، 189).

(2) اختلاف الحديث للشيباني (37).

(3) جماع العلم للشافعي (256).

(4) اختلاف الحديث (91).

(5) اختلاف الحديث (338).

(6) كتاب الرد على محمد بن الحسن الشيباني (283).

(7) تدريب الراوي (4).

(8) طبقات ابن سعد (2: 2: 134) و(5: 345).

بالحكمة، وخير مثال على ذلك: عندما سمع الأصمعيُّ ـ الشاعر المخضرم ـ قصيدةً بعينها لسويد بن أبي كاهل علق قائلاً: «إنَّ العرب يعدونها من حِكَمِهِ»[1].

وفي حقبة ما بعد الإسلام، ذات مرة ـ روى عمران بن حصين «إن الحديث النبوي لا يعدو أكثر من كونه شيئاً من الحكمة».

وقال بشر بن كعب: «إنه كتب بحكمة كذلك».

وذكر عمران «سأروي لكم عن النبي ﷺ وستخبرونني ما في صحيفتكم»[2].

والنبي ﷺ استخدم كلمة الحكمة بالمعنى الحرفي عندما قال: «خذوا الحكمة ولو من أفواه الكفار»[3].

ولنأخذ مثالاً آخر من الحقبة الإسلامية الأولى، لقد ذكر أن معاوية قال لأحد رجال حاشيته: «إنه لرد بارع حكيم من عدي بن حاتم بعد سماعه قولاً منه».

ويقول حبيب بن مسلمة: دوّن هذا في كتابك إنها حكمة[4].

فالحكمة تم تعريفها على أساس أن تعرف جوهر الأشياء وتتصرف طبقاً لمتطلباتها[5].

وبمعنى آخر إنها موافقة الحكم مع السلوك الشخصي، وبهذا المعنى استخدم علماء الفلسفة لفظ الحكمة.

وفي مناسبات معروفة تحدث القرآن عن الحكمة وعلاقتها بالكتاب، وفي مواضع أخرى استخدمها بمفردها.

وفي ثمانية مواضع من الكتاب يشير بها إلى القرآن[6].

---

(1) المفضليات (190).

(2) صحيح البخاري (4: 139)، في الأدب.

(3) العقد الفريد (2: 106).

(4) العقد الفريد (4: 110).

(5) القاموس العربي الإنجليزي لمؤلفه: Lane, E. W، ص (1: 2: 617).

(6) القرآن الكريم (البقرة: 129)، (البقرة: 151)، (البقرة: 231)، (آل عمران: 48)، (آل عمران: 81)، (النساء: 54)، (النساء: 113)، (المائدة: 110).

ولكن ماذا تعني الحكمة؟ إنها بالضرورة تعني شيئاً آخر مختلفاً عما ذكره القرآن، لأن كلمة حكمة انفصلت من الكتاب بحرف العطف { وَ }.

لقد تناول الشافعي باستفاضة استعمال لفظي: الحكمة والكتاب، وخلصَ إلى أن الكتاب يقصد به القرآن الكريم، بينما الحكمة تشير إلى سنة النبي ﷺ[1].

وبنفس هذه النتيجة فَسَّر قتادة (المتوفى سنة 118هـ) قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[2] فقال: تشير آيات الله إلى القرآن، والحكمة تعني السنة[3].

وربما يكون الشافعي قد استعار تفسيراً لكلمة الحكمة بالسنة من الإمام قتادة، لأن الشافعي يقول: «لقد سمعت علماء القرآن وقتادة واحد منهم - يقولون بأن الحكمة تعني سنة النبي ﷺ»[4].

ومع هذا ستظل حقيقة أن الحكمة مساوية تماماً للسنة بإجماع العلماء بعد الشافعي بذلك، ولأنَّ الشافعي لم يضع خطاً فاصلاً بين الحديث والسنة فيمكن أن نقول: إن الحكمة عنده مساوية للحديث.

ويبدو أن الحسن البصري اعتاد أن يستخدم هذا المصطلح بمعنى الحديث ففي خطابه الشهير إلى الخليفة عبد الملك يشير إلى حكمة الآباء، ويقول: «إنهم يتصرفون وفقاً لأوامر الله، لقد رَوَوْا حكمته، واتبعوا سنة رسول الله ﷺ».

فكلمة حكمة التي استخدمت هنا مع كلمة سنة، وكلمة أوامر الله ارتبطت بتعبير روى توضح أن الحكمة بالنسبة للحسن البصري تعني الحديث[5].

7 ـ الفقه والحديث:

على المستوى العملي يطبق مصطلح فقه في المعلومات المتخصصة والخاصة بقوانين الشريعة الإسلامية التي تم صياغتها وتشكيلها من القرآن والحديث

---

(1) الرسالة (24)، جامع بيان العلم (247).

(2) القرآن الكريم (الأحزاب: 34).

(3) طبقات ابن سعد (8: 144).

(4) الرسالة (24).

(5) الإسلام (Der Islam) (21: 68) بالألمانية.

والاجتهاد الشخصي لأئمة الإسلام، ومجالها يشمل كل الجوانب الدينية والسياسية والمدنية للحياة[1].

وعلى المستوى اللفظي فإن المصطلح يشير إلى معلومة، رؤية، أو فهم.

والكلمة بهذا المعنى وجدت في كل من القرآن والأحاديث.

ولهذا يعلق فنسنك قائلاً: «إنَّ القول بأن الفقه هو التبصير، وإذ لم يتناوله القرآن بهذا المعنى فهو غير مقبول»[2].

وسوف نستشهد ببعض الأمثلة لنبين أن الصيغة الفعلية لكلمة «فقه» استخدمت بمعنى الفهم أو التبصر في القرآن. لأنَّ أول المعاني التي يتناولها القرآن حدث عندما وجد ذو القرنين نفسه بين جبلين، نظر فوجد على أحد جوانبه القريبة منه قوماً استطاعوا بصعوبة شديدة أن يفهموه ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[3] (لأنهم يتعلمون لغةً مختلفة ولا يفهمون اللغة الفارسية وهي لغة ذي القرنين).

وعلى سبيل المثال توسّل موسى إلى ربه ليهبه وضوح القول حتى يمكن لشعب فرعون أن يفهموا رسالته باعتباره الرسول المرسل إليهم، ويقول: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾[4].

إن الفعل «فقه» في النص الآتي يعني «الفهم»، وعندما تحدث القرآن عن الكفار قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[5]، وفي آية أخرى تتعلق بالكفار يقول القرآن: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[6].

وفي الآية التالية أيضاً الصيغة الفعلية «يفقهون» تشير إلى الفهم، وتقول الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا

---

(1) Med. Islam.

(2) The muslim creed (110).

(3) القرآن الكريم (الكهف: 93).

(4) القرآن الكريم (طه: 25 ـ 28).

(5) القرآن الكريم (الأنعام: 25).

(6) القرآن الكريم (الكهف: 58).

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴾[1].

وبالإضافة إلى هذا التناول القرآني، فالكلمة بمعنى معرفة، أو إدراك، أو فهم وجدت في أدب الحديث أيضاً، ولنأخذ مثلاً على ذلك: فقد اعتاد الخليفة عمر أن يقول: «تفقهوا قبل أن تسودوا»[2]، ومعنى هذا أنه يجب عليك أن تنمي قدرتك على الفهم والإدراك قبل أن يقع عليك الاختيار كوالٍ، والكلمة بهذا المعنى الحرفي وجدت في سيرة ابن هشام[3].

ولقد رأينا تناول القرآن لكلمة الفقه بالمعنى الحرفي لكلمة «فهم» ولكن هذه الكلمة أيضاً وجدت في القرآن لتشير إلى القدرة على التبصر. وعن تناول القرآن للصيغة الفعلية يقول القرآن الكريم ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[4].

فكلمة تفقهوا استخدمت هنا بوضوح لتشيرَ إلى التبصر بأمور الدين.

وفي الأمور الدنيوية استخدمت كلمة فقه بمعنى البصيرة والتبصر، ولنأخذ مثلاً عن النبي ﷺ إذ يقول: «عندما أراد الله أن يهدي عباده بصرهم وفقههم بأمورِ دينهم وأخبرهم بضعفهم»[5].

وفي بحث آخر يقال: «إذا كان لكل شيء دعامات فدعامة الدين الإسلامي الفقه وذلك من خلالِ المعرفة والتبصر بتفسير القرآن والسنة»[6].

وإذا نظرنا إلى الفقه من منظورٍ تاريخي، فهو في البداية كان يقصد به المعرفة من أي نوع، ولكن عندما استخدمت هذه الكلمة في سياق الدين أشارت إلى التبصر بالتعاليم

---

(1) القرآن الكريم (الأعراف: 179).

(2) كتاب العلم لأبي خيثمة لوحة (2ب).

(3) السيرة (961).

(4) القرآن الكريم (التوبة: 122).

(5) محاضرات الأدباء للأصبهاني (16).

(6) محاضرات الأدباء للأصبهاني (16).

الدينية[1]. وهذا واضح من حديث لأبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: «الرجال معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام لو تبصروا بالدين أي إذا فقهوا»[2].

ووجدنا حديثاً في كتاب المغازي للواقدي حيث روى أن معاذ بن جبل أوصى رسوله إلى المدينة بألا يعلم أهل مكة القرآن، وألا يخبرهم بفضل الله على المسلمين فحسب؛ بل طلب منه أن يفقه الناس (أهل مكة) في دينهم[3].

وفي نص آخر عند الواقدي يقول: «إن فريقاً من قبائل عضل والقارة زاروا الرسول ﷺ وطلبوا منه معلماً لا ليعلمهم القرآن فحسب؛ بل ليفقههم في الإسلام «يقرئنا القرآن ويفقهنا في الإسلام»[4].

إذاً فالفقه في الحقبة الإسلامية الأولى كان عملية فهم واستنتاج، وهذه القدرة كانت مطلوبة لتفسير القرآن وإبداع العلم أو الحديث للمسائل الشرعية والقانونية، والفقيه هو الشخص الذي لديه معرفة تفسير القرآن والحديث، وصياغة القوانين على أساس تفقهه بأمور الدين.

وعلى الرغم من أن الفقه كعلم مستقل تطور كثيراً بعد ذلك بسبب الاهتمام الذي لقيه حتى في العصور المبكرة ـ وعليه فقد ذكر مسروق «أن علي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وأبا موسى الأشعري، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود اعتادوا أن يناقشوا المسائل الشرعية بينهم»[5].

وذكر أيضاً أن جماعة من الناس وجدوا ذات مرة يتذاكرون الفقه أثناء حياة النبي ﷺ[6]، وأكثر من هذا فقد روي أن عمر، وعثمان، وعلياً، وعبد الرحمن بن عوف،

---

(1) صحيح البخاري (2: 340، 348، 350) في أحاديث الأنبياء، و(2: 381) في المناقب.

(2) وفي رأي الغزالي «أن الفقه في فجر الإسلام أشار إلى معرفة خاصة بحياة الآخرة وأخرى خاصة بالحياة الدنيا واستخلص هذا التعريف من الآية القرآنية ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا﴾ مؤكداً على الفعل أنذر الذي يشير إلى أمور الحياة لا إلى فروع الفقه من الناحية العملية والحديث مذكور بمعناه لا بنصه الحرفي.

(3) المغازي (423).

(4) المغازي (345).

(5) طبقات ابن سعد (2: 2: 110).

(6) المسند (4: 298).

ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، اعتادوا أن يصدروا الأحكام التشريعية أثناء خلافة أبي بكر[1].

ومع تأسيس علم المنهج الإسلامي يقول فضل الرحمن: «لقد حدث تغيير جوهري في طبيعة الفقه الذي تطور من مجرد اجتهادٍ شخصي إلى علم بنائي له هيكله من المعرفة» وأضاف: «أن الهيكل المعرفي كان قابلاً للقياس والمعايرة باعتباره نظاماً موضوعياً... في حين كان من حق أي فرد في المراحل الأولى أن يمارسَ الفقه»، ومن المنطقي أن نقول الآن: على المرء أن يتعلم أو يدرس الفقه[2].

ومع هذا يجب أن نشير إلى أنَّهُ في فجر الإسلام كان الفقه يشبه العلم، ويضم معرفةً مركبة مكونة من القرآن، والحديث، والفقه.

وكان علماء هذه العلوم معروفين بدون تمييز باسم علماء، أو فقهاء (أي أصحاب مذهب فقهي) ولهذا لم يكن هناك فرق جوهري بين الحديث والفقه في هذه الفترة المبكرة، ولهذا السبب كان مصطلح فقه يستخدم عادةً ليشير إلى الحديث، وهذا جليٌّ من حديث رُوِيَ عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ قال:

«نَضَّر الله امْرءاً سَمِعَ مِنّا حديثاً فحَفِظَهُ حتى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هوَ أَفْقَهُ منه، ورُبَّ حامِلِ فقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيه»[3].

ويمكن أن نرى أن كلمة الفقه في هذا الحديث استخدمت لتشير إلى قول النبي ﷺ، يعني «الحديث».

وعلى الرغم من حقيقة أن الفقه والعلم (أو الحديث) كان يمكن استخدام لفظ أحدهم للدلالة على الآخر، فإنَّ الفقه كان مجاله أرحب في هذه الفترة المبكرة (كما كان بعد ذلك)، وكان معرفة الحديث ضرورية للغاية بالنسبة للفقه، وهذا ناتج عن حقيقة أنَّ الصحابة أمثال: عبدالله بن عمرو بن العاص، وجابر بن عبدالله، وأبي هريرة، وعبدالله بن عباس من الذين رَوَوْا أحاديث كثيرة وصفوا كفقهاء[4] لا كمحدثين.

---

(1) طبقات ابن سعد (2: 2: 109).

(2) كتاب «الإسلام» تأليف فضل الرحمن، ص (103).

(3) سنن أبي داود (3: 438) في كتاب العلم، حديث رقم (3660)، وجامع الترمذي (10: 124) في كتاب العلم، وسنن ابن ماجة (1: 102) في المقدمة.

(4) طبقات ابن سعد (2: 2: 127).

ويبدو أن الخليفة عمر استخدم مصطلح الفقه بهذا المفهوم الواسع عندما قال: «من أراد أن يَتَفَقَّهَ فليذهب إلى معاذ بن جبل[1]»، ويبدو أنه يقصد بكلمة «فقه» المعرفة الدينية بوجه عام لا كعلم مستقل لم يتطور بعد.

ومع أنه في مطلع القرن الثاني الهجري كانت قد ظهرت تفرقة واضحة بين الفقه والحديث. فقد قال الشعبي عن ابن عمر أنه أي ابن عمر كان بارعاً في الحديث لا في الفقه[2].

وعلى سبيل المثال أيضاً يقال: «أن القاسم بن معن كان حجة في الحديث والفقه والشعر وأيام الناس»[3].

روى الحاكم عن الحجة عباس بن مصعب أنه قال: «إن كتاب الجامع لعبد الله بن المبارك يحتوي على الحديث ـ الفقه، اللغة العربية، وأيام الناس «أي تاريخهم» الشجاعة ـ التجارة ـ الكرم ـ والحب من فئات وجماعات متباينة[4].

8 ـ مصطلحات أخرى متعلقة بالحديث:

ففضلاً عن السنة، الأثر، العلم، الفقه، هناك مصطلحات أخرى ذات صلة وثيقة بالحديث، ومن بين هذه المصطلحات الجديرة بالذكر، الخبر، الرأي، المثل التي سنتناولها بالبحث.

أ ـ الخبر:

الخبر حرفياً يعني «نبأ» «تقرير» «معلومات» بغض النظر عن طبيعة أو مصدر هذا الخبر.

والخبر الذي جَمْعُه «أخبار» استخدم بمعنى تاريخ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وضم أساطير تاريخية من كل نوع.

والحديث الذي يحتوي على تقارير عن أقوال وسنن النبي ﷺ والموافقة الضمنية للنبي ﷺ يقع أيضاً تحت مجال الخبر والذي يعد أرحب مجالاً من الحديث.

---

(1) طبقات ابن سعد (2: 2: 108).

(2) طبقات ابن سعد (2: 2: 125).

(3) طبقات ابن سعد (6: 267).

(4) معرفة علوم الحديث (66).

وفي حين يدور الحديث حول شخصية الرسول ﷺ ويتناول المسائل الصادرة منه، فإن الخبر أوسع من هذا بكثير لأنه يشمل كل المعلومات مهما كان مصدرها.

ومن العلماء من يقصر مصطلح الحديث على العادات الدينية، أو التفسيرات الدينية للعادات؛ فإن العادات ذات الجذور التاريخية هي موضع اهتمام ودراسة الخبر عموماً، ولهذا فالشخص الذي ينهمك في دراسة العبادات الدينية «يسمى» محدثاً، أما الشخص الذي يكرس نفسه لدراسة التاريخ والعلوم المتشابهة يعرف باسم «إخباري»[1].

وفي حين أخذ الحديث معنىً عملياً محدداً مقتصراً على أقوال النبي ﷺ واختصاراً لذلك يسمى حديث النبي ﷺ[2]. أما الخبر فقد استخدم للمعلومات التي تم سردها وأتت من مصادر أخرى غير النبي ﷺ[3].

وعلى الرغم من التفرقة السابقة في المعنى بين الحديث، والخبر ففي كثير من الأحيان استُخدما كمترادفين[4].

ويعطينا الطبري مثالاً آخر حيث استخدم الخبر بمعنى الحديث عندما قال: «إن الخبر ذكر عن النبي ﷺ ليؤكد هذا الخبر على قول لامرئ يعتقد أن العالم سيستمر لمدة ستة آلاف سنة»، وبعد ذلك استشهد لنا بحديث صحيح وأشبعه بتعليق منه.

فالنبي ﷺ ذكر بوضوح في هذا الخبر أن العالم مستمر لمدة ستة آلاف سنة[5].

والغزالي في كتابه «الإحياء» استخدم صيغة الجمع «أخبار» بمعنى أحاديث، ولكي يوضح ميزة العلم استشهدَ أولاً بآيات من القرآن الكريم وسنن النبي ﷺ، وقبل أن ينقل سنن النبي ﷺ علق قائلاً: أما بخصوص الخبر فالنبي ﷺ يقول.....[6].

---

(1) قواعد التحديث (36)، توجيه النظر (3).

(2) دراسة في أدب البرديات العربية: نبيهة عبود (1: 7).

(3) توجيه النظر (3)، تدريب الراوي (4).

(4) يذكر ابن عبد البر أن أبا جعفر قال: «لم نجد بين الحديث وبين الخبر فرقاً في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسول الله ﷺ فجعل الخبر والحديث واحداً» وبنى أبو جعفر رأيه على الآية القرآنية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة: 4)، وعليه فقد جعل الحديث والخبر مترادفين. جامع بيان العلم (2: 176).

(5) تاريخ الطبري (1: 15).

(6) إحياء علوم الدين (1: 5).

بل وحتى في الوقت الذي تطور فيه الحديث واتخذ شكل العلم، فإنَّ الخبر استخدم على الأقل في أحد أنواع، أو فئات الحديث، فعلم الحديث قسم الأحاديث إلى مرفوع وموقوف[1].

وفي حين كان مصطلح «حديث» مخصصاً لنوع المرفوع من الأحاديث كان الخبر مصطلحاً عاماً للمرفوع والموقوف من الأحاديث، وعليه فهناك عبارة تقول «كل حديث يعد خبراً، وليس كل خبر يعد حديثاً»[2].

وذهب علماء خراسان خطوةً أبعد من هذا؛ فقد ساووا بين الخبر وحديث النبي ﷺ، وميزوا أيضاً بين الموقوف والمرفوع من الأحاديث وأطلقوا على الأول: «الأثر»، والثاني أطلقوا عليه: «الخبر». وبهذه الطريقة أصبح الحديث والخبر متماثلين[3].

ومع هذا فإن «روزنثال» «لا يرى أن المصطلحين يمكن استخدام أحدهما مكان الآخر، ويتساءل بعقلانية: إذا كان كل خبر لا يعد حديثاً ـ على الرغم من أن العكس ممكن، فكيف يمكن استخدام أحدهما مكان الآخر»؟[4]

ب ـ الرأي:

وهناك مصطلح آخر يتصل بالحديث: ألا وهو الرأي الذي استخدم بطريقة مغايرة لمصطلح الخبر. ومن الواضح أنه في الحقبة الأولى من الإسلام كانت كلمتا: العلم والرأي تستخدما بمعنى الحديث والاجتهاد (وذلك بدواعي اجتهادية شخصية)، ولهذا نجد عبد الملك يسأل الحسن البصري ما إذا كان مذهب الحرية الذي ينادي به الحسن البصري مشتقاً من القرآن أو من رواية صحابة رسول الله ﷺ أو من رأيه الشخصي[5].

ونستطيع أن نرى بوضوح أن مصطلح «رأي» في التقرير السابق استخدم بمعنى مناقض لرواية، أو بمعنى حديث، ولقد رأينا بحق أن أحد المصطلحات للعادات في

---

(1) الأول يرجع إلى النبي ﷺ بإسنادٍ كامل أو من غير إسناد، أما الثاني فيرجع إلى الصحابة فحسب.

(2) قواعد التحديث (36)، وتوجيه النظر (3).

(3) تدريب الراوي (4)، وتوجيه النظر (3).

(4) دراسة في أدب البرديات العربية: نبيهة عبود (1: 4)، حيث اعتبرت أن «روزنثال» قد وقع في خطأ.

(5) Der Islam (XXI) 1933, P. 67.

الحقبة الإسلامية الأولى كان العلم. ويتضح أن كلمة رواية استخدمت هنا كمرادف لكلمة علم ولكلمة حديث. ولهذا يمكن أن يقال: إن الرأي والعلم أشارا في الحقبة الإسلامية الأولى إلى الاجتهاد بصفة خاصة أو الأحاديث. ونجد تقريرين في تاريخ الطبري حيث وجدت هذه العبارات: أحضروني علمكم[1]، وأحضروني رأيكم[2] وهما كما نرى مصطلحين متناقضين. وبالنسبة لمصطلح علم فإنه يشير إلى مسألة متعلقة بموضوع المغانم، إذ أنه ذكر أن عمر في نهاية إحدى الغزوات طلب من الناس أن يخبروه بعلمهم (المعروف في ذلك الوقت بالحديث) بخصوص توزيع مغانم الحرب، ومن الواضح أن «علم» في التعبير السابق يعني حديث النبي ﷺ.

ومن جهة أخرى فمصطلح «رأي» في عبارة «أحضروني رأيكم» تعني الرأي الشخصي في مسألة لا يوجد بشأنها تشريع في القرآن والحديث.

أما «جولد تسيهر» في مقالته عن الفقه في دائرة المعارف الإسلامية قد أشار بوضوح إلى أن العلم والرأي نقيضان، مع أنه بصورة غير عادية أنكر استخدام الرأي في الحقبة الأولى من الإسلام، وعلى النقيض من وجهة نظر «جولد تسيهر» نجد كثيراً من المصطلحات المغايرة له في تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام، حيث يقول الطبري: إنه أثناء غزو فلسطين كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب رأيه في بعض المشكلات، وعندما تسلم عمر هذا الخطاب علق قائلاً:

«إن عَمْراً غير مستعد للتصرف إلا وفقاً لما يمليه العلم»[3].

فكلمتا: رأي، وعلم في هذا التقرير تعنيان بصفة خاصة الاجتهاد الشخصي بالرأي وكذلك الحديث.

وحتى في فجر الإسلام نجد ذكراً لهذه المصطلحات المتناقضة في قصيدة منسوبة إلى حسان بن ثابت في مرثيته المشهورة حين مات النبي ﷺ والقصيدة تقول:

تناهت وَصَاةُ المسْلِمينَ بكفِّه ... فلا العِلْمُ محبوسٌ ولا الرأي يُفْنَدُ[4]

---

(1) تاريخ الطبري (1: 2417).

(2) تاريخ الطبري: (1: 2213 ـ 2214).

(3) تاريخ الطبري: (1: 2401).

(4) ديوان حسان (43).

أي أن المسلمين يلجأون إلى علم محمد ﷺ لأنه معه لا علم يحبس ولا رأي ينكر.

ويبدو أن حَسان في هذا البيت من الشعر يقصد بالعلم والرأي: حديث النبي ﷺ والآراء الشخصية المستقلة للصحابة بصفة خاصة.

وعلى مستوى المناظرات الأدبية بين مفوض بني تميم من ناحية وبين جماعة محمد (عليه الصلاة والسلام) من جهة أخرى ألقى عطارد بن حاجب خطاباً وتحدى محمداً أن يلقى بأحسن منه إذا كان بإمكانه! وقَبِلَ النبي ﷺ التحدي، واستدعى ثابت بن قيس الأنصاري ليردَّ على الخصم. وعلى الفور حمل ثابت أوامر النبي ﷺ، وبدأ خطابه بهذه الكلمات:

«الحمدلله الذي السموات والأرض خَلْقه، قَضَى فيهن أمرَهُ، ووَسِعَ كرسيَّهُ علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً، وأصْدَقَهُ حديثه، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه... الخ»[1].

وذكر عن النبي ﷺ، نفسه أنه اعتادَ أن يستخدمَ المشتق من كلمة رأي من وقت لآخر؛ فذكر ابن عباس أنه عندما وقع الأسرى في أيدي جيش المسلمين في غزوة بدر قال النبي ﷺ: «يا أبا بكر! يا علي! يا عمر! ما ترون؟ ما نحن فاعلون مع هؤلاء الأسرى؟»[2].

واستخدم الصحابي حباب بن المنذر بن الجموح أيضاً الصيغة الفعلية مرتبطة بالاسم رأي بمعنى وجهة النظر، أو الرأي، وذكر أنه عندما وصل النبي ﷺ في غزوة بدر بأدنى مياه بدر قال حباب له: «أهذا منزل أنزلكه الله لا نتقدم عنه ولا نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»[3]

قال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي، والحرب، والمكيدة.

فرد حباب: ليس لك هذا بمنزل[4].

---

(1) السيرة (1024) طبعة أوربا. وفي طبعة محيي الدين عبد الحميد (4: 224) (المترجم).

(2) مسند ابن أبي شيبة (54).

(3) السيرة (439).

(4) المصدر السابق.

ولعب الرأي دوراً هاماً بالنسبة للقضايا التشريعية في فجر الإسلام لأن مصدري الشريعة في هذه الفترة كان: القرآن، وسنة النبي ﷺ، وفي غياب هذين المصدرين كانا يصرح للصحابة أن يستخدموا فطنتهم الشخصية ليحكموا في القضايا القانونية، والتصريح باستخدام الرأي الذي أجازه النبي ﷺ نفسه لمعاذ بن جبل[1] وبعد وفاة الرسول ﷺ حكم أبو بكر، وعمر في «القضايا» بناءً على رأيهم.

وذكر أن أبا بكر استشار أهل الرأي وأهل الفقه في تقرير القضايا التشريعية[2].

وكان عمر أيضاً يطلب رأي الصحابة في القضايا التي لا يوجد فيها حديث، وكان يُصدر تعليماته إلى الولاة والقضاة أن يحكموا في القضايا بناءً على اجتهادهم الشخصي، وذلك في القضايا التي لا تتوافر لها أحكام صريحة في القرآن والسنة. ولهذا ففي خطابه إلى أبي موسى الأشعري يذكر ثلاثة مصادر للتشريع ألا وهي: القرآن، والسنة المتبعة، والفهم[3] وهذا الموضع الذي وضع فيه المصدر الأخير للتشريع يبين بوضوح أن مكانته بعد القرآن والسنة.

ومع أن الشكوك تحوم حول مدى مصداقيته هذا الخطاب[4] إلا أنه في الواقع وجدت المراجع المتعلقة بنص هذا الخطاب وإن كانت مختصرة عند بعض الثقات مثل أبي يوسف[5]، وهذا يؤكد لنا بأن هذا الخطاب كان حقيقياً وصادقاً.

وعلاوة على هذا فحديث معاذ دليل دامغ لمصداقية هذا الخطاب حيث يرى أن تعليمات الفاروق عمر باستخدام الرأي في حالة عدم توافر الدليل في القرآن والسنة واضح ومطابق للموافقة الضمنية للنبي ﷺ لمعاذ في أن يستخدم هذا المصدر في التشريع.

وعن استخدام الرأي في الحقبة الإسلامية الأولى يقول «براوُمان»:

---

(1) جامع بيان العلم (2: 55 ـ 56).

(2) السنة ومكانتها للسباعي (84).

(3) صبح الأعشى (10: 194)، الكامل (1: 14)، وقد ذكر «شاخت» أن استخدام مالك للرأي معروف، حيث إنه عمل برأيه في القضايا التي لم يجد فيها أحاديث...

(4) Margoliouth omar's instrvctions to the kadi jras, 1910, p. (113).

(5) الخراج لأبي يوسف (117).

«في رأينا يبدو أنه من المحتمل للغاية أن أيَّ والٍ أو قاضٍ في الحقبة الإسلامية الأولى كان من المتوقع أن يركن إلى رأيه عندما لا يجد توجيهاً في الهيكل الواسع من السنة، وغالباً ما كان يلجأ إلى أشكال من القوانين المحلية خاصة المتعلقة باعتبارها «علما»[1].

إن «براومان» لا يرى أن صدق حديث معاذ بن جبل قوي الاحتمال فحسب، بل لا يدنو إليه شك، ويقول:

«إنَّ الشكوك التي أثارها «جولد تسيهر» و«شاخت» حول تطبيق الرأي في الحقبة الإسلامية الأولى وإنكارهما لصدق القصة المتعلقة بمعاذ بن جبل والنبي ﷺ يبدو أنها مجحفة[2].

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن مصادر الشريعة الإسلامية يسجل «بهيج شعبان»: أن المصادر بالنسبة للرأي يجب أن ينظر إليها كآخر المصادر التي يمكن اللجوء إليها عند زوال جميع الوسائل[3].

وقصر ابن المقفع استخدام الرأي على الخليفة فقط فقال «لا يحق لأي شخص أن يدلي بدلوه في الشؤون العسكرية، وفي التنظيمات الإدارية، وفي كافة المسائل التي لم يترك فيها أثر عدا الخليفة»[4].

وفي فترة شباب الصحابة والتابعين فمصطلحا: أهل الحديث، وأهل الرأي كان يقصد بهما أساساً جامعو الأحاديث ومفسرو السنة، وأهل الحديث كانوا يسمون «بالصيادلة»[5] وأهل الرأي «بالأطباء» ولهذا فالأعمش يقول لأبي حنيفة: «نحن الصيادلة وأنتم الأطباء»[6].

ويعلق الزهري: نِعْمَ وزير العلم: الرأي الحسن[7].

---

(1) فجر الإسلام (177 ـ 178) (178 – 177) Early Islam.

(2) فجر الإسلام (184) (184) Early islam.

(3) الإسلام لبهيج شعبان ص (117).

(4) رسائل البلغاء (121 ـ 122).

(5) جامع بيان العلم (2: 131).

(6) المصدر السابق نفس الموضع.

(7) جامع بيان العلم (2: 33).

ومعنى هذا أن خير مساعد لاكتساب المعرفة (العلم) هو الرأي السليم، فالرأي أو الاجتهاد في المثال السابق يبدو أنه يلعب دور المفسر، ولعلَّ التفسير الحسن، أو السيئ للحديث يعتمد على مدى سلامة الآراء، أو أهل الرأي.

وتوقف التابعون ليستفسروا ما إذا كانت العادات المنقولة عن طريق الرواية كانت أحاديثاً فعلية للنبي ﷺ، أو تفسيراً لهذا الحديث مبنياً على الرأي السديد، ورأينا كيف استفسر ابن جريج من عطاء بن رباح عندما روى له الأخير بعض الأحاديث.

وعلى الرغم من التأكيد على أنَّ الرأي استخدم على امتداد التاريخ الإسلامي بحرصٍ شديد، وكان لا يسمح للصحابة باستخدامه بحرية، وسوف نستشهد هنا بمثالٍ واحد لشرح هذه النقطة؛ فقد ذكر رفاعة بن رافع أن رجلاً اشتكى إلى الخليفة عمر بأنَّ زيد بن ثابت قد أفتى في قضايا معينة بناءً على رأيه، وعند سماع الفاروق عمر هذا استدعاه في الحال للمثول أمامه، واستفسر منه عما إذا كان هذا صحيحاً. وأنكر زيد التهمة قائلاً: أنه بنى حكمه على شيء متضمن في الحديث الذي سمعه من أبَيّ بن كعب، وأبي أيوب، ورفاعة بن رافع، وهم من رواة الحديث[1].

ويبين هذا التقرير أن الرأي يلجأ إليه في حالة غياب الحديث فحسب.

ج ـ المثل:

وهناك مصطلح آخر هام له علاقة بالحديث ألا، وهو المثل، والذي يعني قولاً سديداً، أو قولاً مأثوراً.

ومصطلح «مثل» وجمعه أمثال كان قابلاً للتطبيق بالنسبة لسنن النبي ﷺ، كذلك فقد اعتاد بعض الصحابة أن يحفظوا أو يحتفظوا بصور مكتوبة لأقوال النبي ﷺ، وبالنظر إلى هذا المصطلح باعتباره حكمة مكتوبة متعلقة بالحكمة فسموا هذه الأقوال أمثالاً، ولهذا فكلمة «مَثَل» في فجر الإسلام استخدمت كمرادف لكلمة حديث، فعبدالله بن عمرو بن العاص استخدمه بهذا المعنى عندما يقول: «لقد حفظت ألف مثل عن النبي ﷺ»[2].

---

(1) الموافقات (3: 68).

(2) أسد الغابة لابن الأثير (3: 233).

ويشير عبدالله بوضوح في هذا الحديث إلى صحيفته الشهيرة التي كانت تحتوي على ألف حديث.

ومن الواضع أنه يعني بالمثل هنا الحديث بمعناه الحرفي لا كقول مأثور.

إن ابن عبد ربه استخدم أيضاً كلمة مثل (في صيغة الجمع أمثال) بمعنى الحديث عندما كتب فصلاً تحت عنوان:

«أمثال رسول الله ﷺ» ووضع تحت هذا العنوان عدداً من الأحاديث عن النبي ﷺ[1].

(1) العقد الفريد (3: 4 ـ 7).